عماد الدين إبراهيم

تجليات شهرزاد

مجموعة قصصية

الإهداء

إلى شهرزاد التي تجلت لي فيضاً من البوح و الحكايات و الشجن

عماد الدين إبراهيم

تجليات شهرزاد

التجلي الأول

كنتُ وحيداً في المنزل ، بالكاد وضعتُ موسيقا شهرزاد لريميسكي كورساكوف و استرخيتُ قليلاً ، و سرحتُ مع أجوائها و تداعياتها حتى خرجتْ لي ، هي ليستْ المرةَ الأولى التي تخرجُ لي فجأةً حين أكونُ وحيداً ، عرَّفتني إلى نفسِها أنها شهرزاد ، و أنها خرجت خصيصاً لي حتى تأخذَني إلى عوالم حكاياتها ، و وعدتني أنها ستحكي لي حكاياتٍ لم يسمعْ بها بشريٌّ من قبل ، فأكَّدتُ لها أنني لستُ شهريار و لستُ مغرماً بالنساء ، و لا أسعى إلى ألفِ ليلةٍ و ليلةٍ معها أو مع غيرِها ، و أنَّ حكاياتِها و غرائبَها لن تنطليَ عليَّ و لن تُجديَ معي ، فحكايتي أغربُ من كلِّ ما رأتْ هي و ما سمِعتْ ، لذلك لا داعي للفتِ و الدوران ، فأنا أكرهُ المواربةَ و محاولةَ التذاكي عليَّ ، حينها قالتْ :

ـ أنا لن أحكيَ لك حكاية بالكلام .. لا .. أبداً .. فأنا لا أجيدُ الكلامَ و فنَّ الحكي و القصِّ كثيراً ، و إنَّما سأقولُ لك كلَّ ما أريدُ بالإيماءِ .. بالحركاتِ .. و لا تسألني عن أيِّ شيءٍ ، أنت فقط انظرْ إليَّ و فكِّرْ .. تأمَّلْ ، و حين تريدُ إنهاءَ كلِّ شيء فقط انظرْ إليَّ بهذا المعنى أو أشِر بيدك ، قلتُ لها :

ـ حسناً .. اتفقنا .

و هكذا كان

موسيقا كورساكوف تنداح في فضاء البيت , و أنا مسترخٍ بكلِّ ارتياح ، لا بل أكادُ أغفو ، الصورُ و الأفكارُ و الذكرياتُ تتوالى و تتوالدُ في رأسي ، و هي تتمايلُ بجسدِها و كأنَّها حوريةٌ خرجتْ للتوِ من البحر ، أو أنَّها ملاكٌ من النور ، ينسابُ جسدُها بكلِّ ليونةٍ و رشاقةٍ ، بحركاتٍ هادئةٍ سلسةٍ موحية ، تتناغم حركاتُ الخصرِ مع تطويحاتِ اليدين و نقلاتِ القدمين و تطايُرِ الشعرِ و نظراتِ العينين الحالمتين ، تتبدَّلُ حركاتُها و يتلوَّنُ وشاحُها الشفَّافُ كغلالةٍ من ضبابٍ تلفُّ جسدَها البضَّ المِطواع ، يتغيَّرُ لونُه مع كلِّ نقلةٍ من الأبيض إلى البنفسجي إلى الفستقي ثم البرتقالي مع مسحةِ البياضِ التي لا تفارقه ساترةً تفاصيلَ الجسد .

كنتُ أتأمَّل تمايلَها و أغرقُ في الموسيقا ، و بلا أيِّ جهدٍ أتفهَّمُ ذلك الرقصَ و كأنه كلامٌ واضحٌ بيِّنٌ لا يحتاجُ إلى شرحٍ أو تفسيرٍ ، هو ليس رقصاً ، لا ... إنَّه تموُّجٌ روحانيٌّ تعجزُ الكلماتُ عن تعريفِه بدقة ، كنتُ أراها تتطايرُ .. تتشظَّى في فضاءِ البيت كقطعِ البلَّورِ المضيءِ ، ثم تتجمَّعُ جسداً بشرياً ملائكياً شفافاً ، تتمدَّد حتى تبلغَ

عنانَ السماءِ و كأنَّ المنزلَ بلا سقف ، يداها تقطفان النجومَ و تلقيان بها في كلِّ اتجاه ، ثم تعودُ بالتدريجِ ليحتويَها البيتُ ، و هكذا .. و أنا غارقٌ في تيهٍ بصريٍّ – سمعيٍّ عجيب ، كنتُ أتساءلُ : أين أنت يا كورساكوف ؟ مِن أيِّ عالمٍ نورانيٍّ جئتَ بموسيقاك ؟ تُرى حين أبدعتَ تلك الموسيقا كنتَ تعاشرُ حورياتِ الجان و الملائكة ؟ شعرتُ و أنا في غيبوبتي هذه أنني قادرٌ على إبداعِ موسيقا رائعةٍ تشبهُ تموُّجَ هذه الساحرةِ و انسيابَها و تشظيها و تمدُّدَها ، موسيقا لم يسمعْ بمثلِها في الروعةِ و السحرِ كائنٌ بشريٌّ مِن قبل .

تماديتُ غرقاً في سحرِ حركاتها ، خرجتُ من زماني ، من مكاني ، بدأتْ تتشكَّلُ في مخيِّلتي صورٌ من أزمنةٍ و أمكنةٍ غريبةٍ لم أرها من قبل ، لم أعرفها ، لكنها تبدو لي مألوفةً مريحةً هدأتْ نفسي إليها ، أشخاصٌ و أحداثٌ و مناظرُ تمرُّ أمامَ ناظريَّ بهدوءٍ و حميميةٍ و حبٍّ ، و موسيقا كورساكوف تتواصل ، و التموجاتُ الروحانيةُ مستمرةُ ، تساءلتُ : تُرى ألم تتعبْ ؟ يبدو أنني أجهدتُها هذه المرة ، لقد حان الوقتُ لتتوقفَ و تستريح ، حاولتُ تحريكَ يدي لكنني لم أستطعْ ، حسناً سأُفهِمُها بالنظرِ كما اتفقنا ، حاولتُ جاهداً أن أفتحَ عينيَّ ، أن أرفعَ جفنيَّ ، أيضاً لم أستطع ، ماذا أصابني ؟ ماذا دهاني ؟ لِمَ أنا عاجزٌ عن القيام بأيِّ حركةٍ أو إيماءةٍ أو نظرة ؟ هي لم تتنبَّه إليَّ ، ما زالتْ غارقةً في تموجها و انسيابها و حركاتها و نظراتها الحالمة الشاردة كأنها لا تراني ، لا ترى عجزي ، لا تشعر برغبتي في إيقاف كلِّ شيء ... الموسيقا .. الرقص .. الاسترخاء ... أريدُ أن أستيقظَ ، أن أقفَ ، أن أنهيَ كلَّ هذا الذي يجري أمامي فقد طال الوقتُ و امتدَّ .. و امتدَّ .. و امتدَّ ، و بقيتُ وحيداً ... وحيداً ... وحيداً .

العرض الآخر

كان الرجل يصرخ بين جثتين معلقتين على جدارٍ متهدمٍ مقطوعتي الرأس ، ينتحب باكياً حيناً ، و يهلوس راقصاً حيناً آخر ، يتحرك على الخشبة بين العاقل و المجنون ، السعيد و البائس ، محاطاً بأكوام القمامة و بقايا الأشياء التالفة ، حين بدأ يرقص بحركاتٍ فوضويةٍ تحركتْ الجثتان و كأنهما تحاولان تقليدَ حركاتِه ، همسَ بأذني صوتٌ أنثويٌّ من خلفي :

- هل يوجد شخصٌ آخر يحرّكهما ؟

التفتُّ .. فإذا بوجهِ امرأةٍ يلفُّه ظلامُ القاعة ، ارتدَتْ قبعةً تغطي كاملَ رأسها ، أجبتُ هامساً و ظلامُ القاعة يغطي الجميع :

- بالتأكيد هناك منْ يحرّكهما و لكنْ لا يظهرُ على الخشبة .

استمرَّ العرضُ المسرحيُّ ، كان الممثلُ الوحيدُ يروح و يجيء بين أكوام القمامة بحركاتٍ عصبيةٍ متوترة ، تعكس حياتَه البائسةَ في هذه الخرابةِ بين الجثتين مقطوعتي الرأس ، ليبدأ بالبحثِ عن الرأسِ المقطوع ، وجد رأساً معلقاً بين أغصان شجرةٍ عاريةٍ ، تناوله بلامبالاةٍ مفتعلة مقلّباً إياه بين يديه .

عاد الصوتُ يهمسُ بأذني :

- مِنْ أين جاء بالرأس ؟

أجبتُها هامساً :

- كان معلقاً بين أغصانِ الشجرة يبدو أنكِ لم تنتبهي .

- آه ... نعم .. نعم .

الممثلُ يحاور الرأسَ محتاراً ، يسأله لأيِّ جثةٍ هو ؟ ! و بدأ يجرّب وضعَه على كلِّ جثةٍ على حِدة ، ليكتشفَ أنَّ هذا الرأسَ هو رأسُ أخيه ، و الجثة التي عثر عليها في حاويةِ القمامة جثة أخيه أيضاً ، منذ زمنٍ بعيدٍ لم يلتقيا ، كان يظنُّ أنه سافر خارج البلد ، فالعلاقة بينهما لم تكن جيدةً .. و ساءت حتى انقطعت ، ازداد نحيبُ الرجل و هو يتذكَّرُ ما كان يجري من حوارٍ بينه و بين أخيه ، ليتنهيَ العرضُ المسرحيُّ بصرخةٍ يؤكّد فيها هذا الرجلُ البائسُ مقولة : إذا لم تكنْ ذئباً أكلتكَ الذئاب ، و أنه ذئبٌ .. نعم هو ذئبٌ رغم أنَّه حاولَ العواءَ و لكنْ لم يخرج صوتُه أبداً .

انتهى العرضُ المسرحيُّ ، صفَّق الحضورُ طويلاً ، سألتني :

ـ ألن تخرج ؟

ـ طبعاً سأخرج .

خرجنا معاً ، في بهو المسرح حيث الإضاءةُ تكفي للرؤيةِ الواضحة تبادلنا السلامَ و التحيةَ ، و كلماتٍ قليلةً عن العرضِ الجيد الذي يحمل مقولةً فكريةً يريدُ إيصالَها للمتفرج ، و ليس عرضاً فكاهياً للترفيهِ و الضحك ، أصبحنا خارج المسرح تفاجَأتِ المرأةُ بأنَّ ضوءَ النهار ما يزالُ ساطعاً ، و لم يحُلِّ الليلُ ، فأوضحتُ لها أننا دخلنا في التوقيتِ الصيفي و هناك حوالي نصفِ ساعةٍ ليحلَّ ظلامُ المغيب ، و أضفتُ قائلاً :

ـ يبدو أنك مهتمةٌ بالمسرح ؟

ـ نعم .. قليلاً .

ـ هل عملُكِ له صلةٌ بالمسرح و الثقافة أم له ....

قاطعتني قائلةً :

ـ على فنجان القهوة نتحدث أليس أفضل ؟

ـ نعم أفضل .. هي دعوةٌ مني إذنْ لنتناولَ فنجاناً من القهوة في المقهى القريب من هنا .

مشينا ببطءٍ المسافةَ القصيرةَ بين مسرحِ القباني و مقهى السفراء في هذا المساء الربيعي ، كنتُ خلالها أتأمَّلُ المرأةَ التي أرافقها ، تبدو بلباسِها الشتويِّ الثقيل ، و قبعتِها و قامتِها المربعة كأنها خارجةٌ للتو من عرضٍ مسرحيٍّ عن الساحرةِ الشريرةِ التي كانتْ ترويها لنا الجداتُ في أمسياتِ الشتاء ، و التي تمتطي صهوة مكنستها متنقلةً من مكانٍ لآخر ، لوهلةٍ حاولتُ التدقيقَ إذا ما كانت تخفي مكنستَها بين طياتِ ملابسِها الكثيفةِ و الثقيلة ، سخِرتُ من نفسي على هذه الفكرة و تابعتُ السيرَ معها ينتابني شعورٌ بالخيبة ، ظننتُها في عتمةِ الصالةِ صبيةً جميلةً ، و أن الفرصة السعيدةَ قد جاءت بمبادرةٍ منها للحديث ، و لا بأسَ بصحبةِ أنثى جميلةٍ بعدَ عرضٍ مسرحيٍّ جميلٍ ، أيْ أنَّ هناك جانباً ثقافياً مشتركاً يجمعُ بين الشخصين ، و لكنْ ها أنا الآن برفقةِ الساحرةِ الشمطاءِ العجوز و لا مجالَ للهرب ، هي دعتْ نفسَها لفنجانِ قهوة ، و أنا استجبتُ للدعوةِ كالأبله ... حسناً هي فرصةٌ لجلسةٍ يتيمةٍ مع هذا الكائن الذي يسير

بجانبي و لن تُعادَ ، سأحاولُ التغلُّبَ على شعورِ الخيبة في نفسي ، و سأبذلُ جهدي كي أبدوَ طبيعياً .

****

انتقينا طاولةً تطل على شارع /29/ أيار و ساحة يوسف العظمة (ساحة المحافظة) في آخر المقهى ، جاء النادلُ ، طلبتُ لي كأساً من الشاي و سألتها عن قهوتها حلوة .. وسط .. سادة ، أجابت : لا لا ... أريد كأسَ عصير ، ذهب النادلُ لإحضار الطلب ، أما أنا فقلتُ لنفسي ممتعضاً : بدأنا .. يبدو أن الخديعة ستكتمل ، وجَّهتُ كلامي لها :

ـ حسناً الآن جلسنا على عصير و شاي (مُلمِّحاً إلى تغييرِ طلبِها من قهوة إلى عصير و هو أغلى سعراً) تفضَّلي حدِّثيني عنك .

ـ هل يمكن أن أطلبَ أركيلة ؟

ـ طبعاً يمكن . طلبتُ لها أركيلة ، سألتني :

ـ و أنت ؟ ألن تطلبَ لنفسِك أخرى ؟ أجبتُ بهدوءٍ قاطعٍ و حاسمٍ :

ـ لا دخان و لا أركيلة ... شاي فقط . و كُلِّـي آذانٌ صاغيةٌ واعيةٌ لسماعِكِ .

كانت تتحدَّث و ملامحُ وجهها تضيع بين ظلالِ قبعتها الشتوية الثقيلة التي تلقيها على بشرتِها أضواءُ المقهى و ما تناهى إلينا من أضواءِ الشارعِ الخارجي ، و نفثاتِ دخانِ الأركيلة الكثيفة ، أما صوتُها فكان هادئاً متقطعاً يعكسُ شخصيةً بائسةً مترددة و غيرَ متماسكةٍ ، عرفتُ من حديثها أنها امرأةٌ في الخامسة و الأربعين من عمرها درستْ في معهدِ طبِّ الأسنان و لم تُكمِلْ ، تحوَّلتْ لدراسة التجارة و الاقتصاد ، أيضاً لم تتخرَّج ، جرَّبتْ العملَ في عدة وظائف في القطاع الخاص ، لكنها لم تستمر ، و هي الآن بلا عمل ، تعيش مع أمِّها العجوز و أختٍ أصغرَ منها موظفة ، و تعاني وحدةً قاتلةً .

كما كان وجهُها يضيعُ خلفَ نفثاتِ الدخان و ظلالِ القبعة ، كذلك كان صوتُها يتقاطع في أذنَيَّ مع صوتِ الممثل الوحيد و هو يصرخ من البؤس و الفقر و الوحدة و الألم في العرضِ المسرحي الذي خرجنا منه للتوِّ .

تأملتُ وجهَ جليستي و قد خَطَّتْ عليه السنون أولى علاماتِ الشيخوخة ، حيث بدأت بَشرتُها بالترهُّلِ ، و التجاعيدُ الناعمة تتمدّدُ هالةً حولَ العينين ، حدَّثتُها عن نفسي قليلاً بناءً على طلبها ، و حتى تكونَ جلسةُ الاعترافِ و البوحِ ـ هكذا

أسميتها في قرارة نفسي ـ متوازنةً ، و كي لا تشعرَ أنني غيرُ راغبٍ بمجالستِها ، سألتني بشيءٍ من الرجاءِ المتملّصِ من خجلٍ مزمنٍ تشعر الآنَ أنها دفعتْ ثمنَه غالياً :

ـ هل يوجد بين أصدقائك عريسٌ يناسبني ؟

تأمَّلتُها ملياً ، فكَّرتُ بسؤالها كثيراً ، تُرى كَمْ فيهِ من البؤسِ و الألم و اليأسِ و الجرأةِ أيضاً ؟!! لكنها جرأةٌ متأخرةٌ كثيراً .. لا قيمةَ لها ، هي جرأةُ مَنْ خَرَجَ من حلبةِ الصراعِ و التنافس و صار وحيداً حيث لا حاجةَ للجرأة ، أجبتُها :

ـ للأسف لا يوجد .. لكنْ لا تخلو الدنيا من أن تجدي شخصاً يناسِبكِ . قالتْ بإحباط :

ـ هل تظنُّ ذلك ؟ هل يمكن أن أجدَ رجلاً بعد هذا العمر ؟ إنني وحيدة .. وحيدة جداً أريد شخصاً أتحدَّثُ إليه .. صديقاً ... رفيقاً ... كائناً ما يكلمني ، لقد سئمتُ هذه الحياة . قلتُ لها مواسياً و سائلاً :

ـ ألم تجدي صديقاً أو صديقة تترافقان سويةً في الجلسات ، ترتادان المسرحَ معاً ، تجلسان في المقاهي ...

ـ أبداً . كانت لي صديقة وحيدة تعرَّفتُ إليها أثناء الدراسة و بقينا معاً حتى سنواتٍ قريبة .. مع بداية الأزمة انقطعتْ علاقتُنا ، الآن لا أعرفُ عنها شيئاً .. سافرتْ ... بقيتْ .. ماتتْ .. لا أدري ، و صرتُ وحيدةً كما تَرى .

إذنْ الوحدةُ هي التي دفعَتْها لفتحِ حديثٍ معي في قاعةِ المسرح المظلمة و الصامتة إلا من صُراخِ الممثلِ و هذيانِه ، الوحدةُ أيضاً هي من دفعني بعدَ سؤالين منها لأنْ أغيّرَ الكرسيَّ الذي أجلسُ عليه أمامها ، و أختارَ كرسياً آخرَ قربها ، أمَلاً بصديقةٍ جميلةٍ تبدّدُ وحشة وحدتي ، الوحدةُ هي التي جعلتْ الممثلَ الوحيدَ في العرضِ المسرحي يصرخُ بصوتٍ مدوٍ في نهايةِ العرض : " أنا ذئب ، و لكنَّ صرختَه لا قيمةَ لها ، كجرأةِ هذه العانسِ الوحيدة ، جاءت متأخرةً جداً .

نظرتُ إلى ساعتي قاربتْ الثامنة ، قلتُ لها :

ـ لقد تأخرتُ يجبُ أن أذهب .

كانت نظراتُها ترجوني أن أبقى أطولَ مدةٍ ممكنةٍ ، شعرتُ بذلك فأضفتُ :

ـ إذا أحببتِ أن تبقي في المقهى و تُكملي جلستكِ و نفسَ الأركيلة فلا مشكلة ، أنا سأحاسبُ النادل . أجابت بتلكؤٍ :

ـ لا .. لا .. نخرج معاً .

خرجنا معاً ، حاولتْ إقناعي بلقاءٍ آخرَ نتحدَّثُ فيه ، استجبتُ لها شفقةً ، اتفقنا أن نلتقيَ الأسبوعَ القادم بالتوقيت و المكان نفسه ، هي لا تحمل موبايل و لا تملك هاتفاً في المنزل ... لا شيءَ للتواصل ، وعدتني أنها ستشتري موبايل ، تودعنا و نظراتُ الاستمهالِ في عينيها ، اتخذتُ طريق بورسعيد و منه إلى جسر الرئيس حيثُ ركنتُ سيارتي ، غِبتُ عن أنظارها بين ظلالِ المارةِ و ظلمةِ الشارع ، ألقيتُ عليها نظرة عن بُعد ، لمحتُها من الرصيفِ المقابل بقامتِها المربعة ، و قبعتِها الأسطورية ، و نظراتِها الضائعة التي تعكسُ حَيرةً و وحدةً مؤلمةً ، و كأنها أضاعت الاتجاهات في ساحةِ المحافظة حيث تفرعاتُ الشوارعِ تُحيِّرُ الغريبَ و الوحيد .

(آتشگاه) جبل النار

يا (آتشگاه) ... يا جبلَ النار لم أكن أدري أنَّ طولَ تأمُّلي لكَ سيُشعل النارَ في قلبي ، كنت أرنو إليكَ غافلاً أنَّني سأقدِّمُ لاحقاً جمرة قلبي قرباناً لكَ ، و أنني سأتذكَّركَ كمتعبِّدٍ من متعبِّديك القدامى .

وضعتُ أمتعتي ، خلعتُ ملابسي ، أخذتُ حماماً سريعاً ، ثم جلستُ أتأمَّلُ المدينة من النافذة ، كانتْ مترامية الأطراف ، تتخللها أشجارُ الحدائق و الواحاتُ الغناء و تحيط بها البساتينُ الخضراء ، عن بُعدٍ بدا لي جبلُ (آتشگاه) جليلاً كشيخٍ يرقبُ المدينة بجلستِه الوقورة ، تأمَّلتُه بقمَّتهِ العاليةِ الحادَّة و رحتُ أفكِّرُ ملياً بوجودي هنا في هذه المدينة ضيفاً غريباً ، فقد حطَّتْ بنا الطائرةُ حوالي الساعة السادسة و النصف مساء في مطار أصفهان قادمة من مطار مهرآباد في طهران ، حلَّقتْ بنا فوق أراضٍ قاحلةٍ عارية ، تتخللها بعضُ الواحاتِ الصغيرة الخضراء المحاطة بالصحاري الشاسعة ، و كلما اقتربنا من المدينة ازداد عددها ، نزلنا من الطائرة ، أنهينا إجراءاتِ الخروج من المطار ، لِنجدَ باصاً بانتظارنا ليقلَّنا إلى فندق عباسي في قلب أصفهان ، كنا مجموعة من الإعلاميين من مختلف دول العالم مدعوين لحضور مؤتمرٍ دوليٍّ ، دخلنا المدينة من طرفها الشماليِّ - الشرقيِّ ، عبرنا الشوارعَ المظللة بالأشجار ، مررنا بمحاذاة نهر (زايَندَه رود) إلى أن وصلنا فندق (عباسي) متعبين و قد أنهكنا السفر ، فصعدتُ مباشرةً إلى غرفتي .

يبدو أنني غفوتُ و أنا أتأمَّلُ تلك المناظرَ و أسترجعُ لحظةَ وصولنا ، استيقظتُ على طرقٍ خفيفٍ على باب غرفتي ، كان زميلي في السفر يدعوني للنزول إلى بهو المطعم لتناول العشاء و بعدها نتجوَّل في أرجاء الفندق .

******

أطلَّ علينا القمر بهياً ذهبياً كاملَ الاكتمال كأنه في متناول اليد ، و نحن نتجوّل في حديقة (عباسي) الداخلية حيث تتخلَّل سواقي المياه الدروبَ المبلَّطة بنوعٍ خاص و مميَّزٍ من الرخام ، و تتوزَّعُ الفسحاتُ الصغيرةُ و عليها طاولاتٌ و كراسٍ لروّادِ الفندق ، و البحراتُ الصغيرةُ بنوافيرها و هي ترشُّ الماءَ رذاذاً على شجيراتِ الورد التي تلقي بظلالِها على الأرض ، مما يبعثُ شعوراً عارماً بالبهجة ، انتابني شعورٌ بالنشوةِ الفريدة ، لم أشعرْ بمثل هذا الشعور من السعادة و الارتياح طوالَ عمري حتّى لكأنَّني في قصرٍ من قصورِ ألفِ ليلةٍ و ليلة ، تحدّثتُ من صديقي و رفيق السفر عمَّا يحيط بنا من جمال ، عبَّرنا عن ارتياحنا و سعادتنا بهذه الفرصة في القدومِ إلى أصفهان ، فهي – ربما - لن تتاحَ لنا مرةً أخرى في المستقبل ، و من

فرطِ السعادة أخذنا نترنَّمُ بصوتٍ خفيضٍ ببعضِ الموشّحات ، انتبه إلينا بعضُ روّاد الفندق و هم من أهالي أصفهان الأثرياء الذين يسهرون مع عائلاتهم في هذه القطعةِ من الجنّة ، انتبهوا إلى لغتنِا العربية فكانوا ينظرون إلينا بشيءٍ من الدهشةِ و الودِّ ، هكذا شعرتُ من نظراتهم .

الجمالُ كان عنواناً لكلِّ شيءٍ رأيناه في الفندق ، جدرانُ المطعم الذي تناولنا فيه طعامَ العشاء عبارةٌ عن لوحاتٍ فنيةٍ غايةٍ في الإتقان ، الشاباتُ الأصفهانيات الفاتنات بعيونِهنّ الواسعة و بَشرتِهنَّ البيضاء يُضفين على المكانِ شيئاً من السِّحرِ الإلهي ، كلُّ شيءٍ يأخذ اللبَّ ، ربما كنَّا نحن أيضاً مهيَّئين للاستسلام لهذا الشعور .

اقتربتْ الساعةُ من العاشرةِ ليلاً موعدِ افتتاحِ المؤتمر ، اكتمل الحضور من المدعوين إضافةً لروّادِ الفندق العاديين الذين ظلّوا على طاولاتهم لمتابعة الحفل الغنائيِّ في نهايةِ الافتتاح الرسمي ، أفسانة المترجمة الإيرانية المرافقةُ لنا جلستْ قربي لتترجمَ لنا ما يقال في الكلمات الافتتاحية ، تعاقَبَ المتحدّثون بكلماتهم الموجزة ، ثم حان وقتُ توزيع الجوائز على الفائزين ، جذبَ اهتمامي صوتُ المذيعةِ التي تترجمُ مباشرةً من الفارسيةِ إلى الانكليزية ، لها صوتٌ عميقٌ جميلٌ و مريح ، صوتٌ إذاعيٌّ بامتياز ، شعرتُ أنّه يتغلغل في خلايا عقلي و قلبي ، قلتُ لصديقي : اسمعْ هذا الصوت ، كم هو جميلٌ و شجيٌّ و مريح ، أفسانة انتبهت إلى الهمس بيننا فسألتنا إذا كنا بحاجةٍ إلى أيِّ شيء ، فأخبرتُها عن إعجابي بذاك الصوت ، فتبسَّمتْ قليلاً و تابعنا الحفل ، لثوانٍ قليلة ظهرتْ صورةُ المذيعةِ المترجمة على شاشةٍ كبيرةٍ خلف المنصة ، فإذا بها تمتلك وجهاً ملائكياً فاتناً تجلَّى فيه الجمالُ الفارسيُّ الأسطوريُّ ، فزاد تأثيرُها علي ، لقد جمعتْ جمالَ الصوتِ و الشكلِ ، انتهى الحفل ، غادر الضيوف الرسميون ، و نحن نتهيأ للمغادرة تحدَّثتُ مع أفسانة عن جمال الحفل و ترتيبه و الأجواء المريحة في الفندق و غير ذلك من الأحاديث العادية ، فجأةً وجدتُ مقابلي ، وجهاً لوجه ، مذيعةَ الترجمةِ و هي قادمةٌ لتنضمَّ إلى رفيقاتها الجالساتِ في الصفوفِ الخلفية ، فهنَّ من العاملات في الإذاعات و لسن ضيوفاً ، بدا عليها بابتسامتها اللطيفة و كأنها تغالبُ الخجلَ الذي شعَرَتْ به و هي على المنصة ، و التعبَ من الترجمةِ الفورية فهي أصعبُ أنواع الترجمة ، التقتْ نظراتُنا ، شعرتُ أنَّ خيطاً من حرير النور القديم يشدُّني إليها ، لم أستطع أن أتمالكَ نفسي ، طلبتُ من مترجِمتنا أفسانة أن تبلغَها بإعجابي ، فزادَ خجلُها و انجلتْ ابتسامتُها عن لؤلؤ أسنانها ، كانتْ هي الأخرى تتقنُ بعضَ الكلماتِ العربية تبادلنا بعضَ العبارات و الجُمَلِ ما بين عربيةٍ و فارسيةٍ مع الابتسامات و النظرات المعبِّرة التي توصل للآخر ما تعجَز عنه اللغة ، شعرتُ أن الشحنةَ الكهرومغناطيسيةَ المضطربةَ و المشوَّشةَ في جسدي و روحي ، تتوازنُ الآنَ و تنسجمُ لتمنحَني شعوراً عميقاً

بالارتياح و الصفاء ، اعتذرتْ منا لأنها ستذهب إلى غرفتها لتنام ، حينها و بشكلٍ عفوي قلتُ لها :

ـ شَبْ خِير دِلْ بَرَمْ (تعني : تصبحين على خير يا مَنْ ملكتِ قلبي) ، حين تلفظتُ بهذه الجملة باللغة الفارسية ، و كنتُ قد تعلَّمتُها حديثاً ، رأيتُ الوجومَ على وجوه الفتيات حولنا مع شعورٍ بالمفاجأة ، ثم الابتسامات الخجولات على وجوههن و هنَّ يدارينها بأكفِّهنَّ ، أما هي فكانتْ العبارةُ شديدةَ الوقعْ عليها ، ارتبكتْ ، رمقتني بنظرةٍ عميقةٍ فيها من السعادةِ أكثرُ ممّا فيها من الخجل و كأنّها تقولُ لي : أيُّ جرأةٍ لديك أيُّها الغريب ؟ لقد أخجَلتَني بما قُلتَ ، لم تردّ عليَّ ، الأخرياتُ كنَّ ينظرن إليها بشيءٍ من الغَيرةِ و الحسد ، ودَّعتنا بإيماءةٍ من يدِها البضَّةِ البيضاء ، و ذهبتْ ، علمتُ من أفسانة حين سألتُها عن سببِ الوجومِ الذي علا وجوهَ الفتياتِ عندما قلتُ تلك الجملةَ ، أنَّ هذه الجملةَ لا تُقالُ إلَّا بين المحبين ، و أن الرجلَ الفارسيَّ لا يُسمع المرأة كلاماً غزلياً جميلاً ، التفتنا حولنا كان الحضورُ قد انفضَّ و لم يبق إلا عددٌ قليلٌ من الأشخاص ، الساعة قاربت الواحدةَ بعد منتصف الليل ، توجَّهنا كلٌّ إلى غرفته ، في غرفتي لم أنم ، لم أشعر بالتعبِ و الإرهاق ، كنتُ أنتظر الغد على أمل اللقاء بصاحبة هذا الوجه و الصوت المذهل الذي أخذ بمجامع عقلي و قلبي . جلستُ قرب النافذة أتأمّل المدينة تحت ضوء القمر الفضي ، إلى أن بدأتْ أشعةُ الفجر الأولى تغسل وجه المدينة ، تأمّلت جبل آتشگاه طويلاً ، تمعَّنتُ في الألوان و هي تتبدّل و تتدرَّج على قمته و سفوحه من عتمة الهزيع الأخير من الليل حتى طلوع الفجر ، ثم أخذتني غفوة النوم .

****

الساعة الثامنة صباحاً ، تأخرت في الاستيقاظ بسبب قلقي و أرقي أمس ، أدركتُ وقتَ الإفطار في الدقائق الأخيرة ثم التحقتُ فوراً بالمحاضرة الأولى في برنامج المحاضرات الذي يستمر يومين ، و هو عبارة عن محاضرات في الفن الإذاعي في عصر التلفزيون و الانترنيت و التطور التقني ، تستمر حتى الساعة الثانية ظهراً تتخللها استراحاتٌ قصيرة لتناول بعض العصائر و المشروبات الساخنة و قطع الكاتو ، فترة بعد الظهر لها برنامج ترفيهي يتمثل بزيارة أهم المواقع السياحية في أصفهان ، فقد زرنا ساحة الإمام و المساجد في أطرافها الأربعة ، قصر علي قابو كنيسة اللاتين ، السوق المسقوف للأعمال و المهن اليدوية ، جسر سي و سه بُل على نهر زاينده و غيرها ، أمّا مساءً فهو وقتٌ حرٌّ للضيوف ، تجوَّلنا في شوارع أصفهان حيث تغطي الأشجارُ بظلالها أرصفة المشاة ، و تتوزع السواقي كحدٍّ بين الرصيف و الشارع ، و أنا أتأمل هذه الشوارع و الأماكن كنت أجلوها بنظري ،

أتعرف إليها ، أتملّاها فيظهر خلفَها طيفُ تلك الفتاة التي لم أعرف اسمَها بعد ، لقد أصبحَتْ هاجساً لي في كلِّ ما أفكّر به ، حين أنظر أبحث عنها في وجوه المارة لعلَّ مصادفةً أخرى تجمعنا ، و لكنْ عبثاً أمضينا كلَّ فترةِ ما بعدَ الظهر دون أن أراها ، مساءً تعمَّدتُ أن أُمضي أطولَ مدةٍ ممكنة في حديقة الفندق حيث تمَّ حفلُ الافتتاح عسى أن أراها ، لم أجد من المناسبِ أن أسألَ مرافقتنا أفسانة عنها ، و لكن بينما نحن نتجاذب أطرافَ الحديث و إذ بها تقف خلفي ، و تلقي تحية المساء بلكنةٍ عربيةٍ مكسَّرةٍ شعرتُ أنها أفصحُ لغةٍ عربية سمِعتُها في حياتي ، أيُّ مساءٍ إلهيٍّ هذا ؟ أيُّ سحرٍ يأخذني و ينفذ إلى قلبي ؟ التفتُ إليها كانتْ نظراتي الولهى تعبِّر عن فرط سعادتي ، تقول لها إنني بحثتُ عنها كثيراً ، تحدثنا و أفسانة تترجمُ كلامَنا ، و لكن أنَّى لها أن تترجمَ مشاعرَنا و عواطفَنا و نظراتنا ؟؟!! عرفتُ أن اسمها بهروان و أنها مذيعة باللغة الانكليزية في إذاعة صداى آشنا في طهران مكانِ إقامتها ، التقطتْ لنا أفسانة صورةً تذكاريةً وحيدة ، تبادلنا أرقامَ الهواتف و الايميلات للتواصُلِ لاحقاً ، كان عجزُنا في التعبيرِ باللغة ترمِّمُهُ النظرات ، أمضينا حوالي ساعةٍ من الزمن هي أجملُ ساعاتِ العمر ثم غادرَتْ ، في المساء التالي لم أرها عرفتُ من أفسانة أنها سافرَتْ ليلاً مع زميلاتها إلى طهران ، لأنَّ برنامجهن يقتصر فقط على حضور حفل الافتتاح و استلام الجوائز ، أما بقية البرنامج و المحاضرات فهي للضيوف الزائرين ، أيُّ حزنٍ دبَّ في نفسي ؟ شعرتُ أنْ لا قيمةَ لوجودي في أصفهان ؟ لم تعُدْ جنةً إلهيةً ، و لم تعدْ مساءاتُ و ليالي (عباسي) تشبهُ ليالي ألفِ ليلةٍ و ليلة ، أصبحتْ قفراءَ موحشةً كئيبة ، عند ظهيرة اليوم التالي و قد انتهتْ أيامُ المهرجان الثلاثة تهيأنا للسفر إلى طهران ، موعدُ الطائرة الساعة الثالثة ظهراً تهبط في مطار مهرآباد في طهران و منه نستقلُّ بولمانا إلى مطار الخميني الدولي حيث نركبُ الطائرةَ التي ستأخذنا إلى دمشق عند الساعة الثانية صباحاً .

مضتْ هذه الساعاتُ كشظايا تمزّقُ قلبي و أعصابي ، شعرتُ أنَّ وردةَ عشقي قُطفتْ قبلَ أن يتفتّحَ برعمُها ، شعرتُ أنّ شيئاً يجتثُّ جذوري التي نبتت فجأةً و ترسَّختْ في هذه المدينة مع هذه الفتاةِ الفارسية الفاتنة ، أيُّ عشقٍ تملكني ؟ و أيُّ جنونٍ عصفَ بي ؟

*****

ظلّتْ أفسانة ترافقنا حتّى مدخلِ مطار الخميني ، ثم ودَّعتنا ، أخبرتني أنّها ستزور دمشقَ قريباً و تريدُ مساعدتي لها في دراسةٍ تحضِّرها لنيلِ شهادة الماجستير في اللغة العربية عن الشاعر السوري محمد الماغوط ، أبديتُ كلَّ الاستعداد لذلك ملمِّحاً و طالباً منها أن تأتيني بشيءٍ عن فتاة أصفهان ، نقلنا الحقائبَ إلى الداخل ، أنجزنا

أوراقَ المغادرة ، ساعاتٌ من الانتظارِ في صالة المسافرين ، بردُ الليل بدأ يتغلغل في عظامي ، أنكمِشُ على نفسي للاحتفاظِ بحرارةِ جسدي فقد تأخَّرتْ الطائرةُ عن موعدِها حوالي الساعة و النصف ، لكنها جاءت أخيراً فتوجَّهنا إليها .

*****

على المقعد المجاور رأيتُ امرأةً إيرانيةً جلسَتْ بلباسِها التقليدي الشادور ، استرخيتُ على مقعدي دونَ أن أعيرَها أيَّ اهتمام ، كنتُ غائباً عمَّا حولي ، شعرتُ أنَّ المرأةَ تتحرَّك ... تتململُ في جلستها ، تلتفتُ نحوي ، نظرتُ نحوها ، التقتْ نظراتُنا .. يا إلهي إنّها هي ، بهروان فتاةُ أصفهان ، كيف حدث ذلك ؟ ما الذي جاء بها إلى هنا ؟ أيُّ مصادفةٍ سعيدةٍ جمعتنا ، ألقيتُ عليها سلاماً حاراً من جديد ، سلامَ المحبِّ العاشق ، ابتسمتْ بخفرٍ و لم تتكلّم لكنّها كانت ترنو إليَّ ، سألتُها متى و كيف جاءت ؟ و لماذا لم تخبرني أنها مسافرة إلى دمشق ؟ لماذا و لماذا و لماذا ؟ أسئلةٌ كثيرةٌ سألتُها ، لكنَّها ظلتْ صامتةً بنظرتِها و ابتسامتِها ، حدَّثتها عن كلِّ ما في قلبي من عشقٍ لها ، رسمتُ لها خطةَ الإقامة في دمشق ، كيف سنمضيها معاً ، أيّ الأماكنِ سنزور ، و أنني سأجعلها تنسى طهران و أصفهان ، سأجعلها تفكِّر بالبقاء في دمشق دائماً بالحبِّ الذي سأحيطها به ، تكلمتُ كثيراً لم أعطها فرصة الكلام ، هي أيضاً كانت تستمعُ و تبتسم ، فكَّرتُ في أن أضمَّها إلى صدري ، أن أعانقَها ، التفتُّ حولي لا أحدَ ، نحن وحدنا فقط ، أين اختفى ركابُ الطائرة الآخرون ، تأملتُ المكانَ ، نحن لسنا في طائرة ، نحن في منزل أهلي بمسقط رأسي ، و ها هي أمّي تنجز بعضَ الأعمالِ في حديقةِ المنزل ، قلتُ سأعرِّفها إلى حبيبتي ، سأقوم و أناديها لتراها ، قمتُ قليلاً ، شيءٌ ما اصطدم برأسي ، امتدّتْ يدٌ تُعيدني إلى مكاني ، كان رفيقي في السفر الذي يجلسُ بجواري يمدُّ يده للتخفيفِ من اصطدام رأسي بظهر المقعد الأمامي ، و قال موضحاً :

ـ مرّتْ الطائرةُ بمَطبٍّ هوائيٍّ و يبدو أنك كنتَ نائماً و لم تسمعْ تنبيهَ المضيفة ؟

كنتُ نائماً إذن ، هو خيالُ نائمٍ ، حلمٌ ، لكنَّه حلمٌ لذيذٌ و ليتَه يستمرّ ، وصلنا إلى مطارِ دمشقَ الدولي الساعةَ الخامسة صباحاً ، عادةً بعد أن أعودَ من السفر أكون سعيداً رائقَ المزاج ، لكنْ هذه المرّة كنتُ في غايةِ الحزن ، كلُّ منْ حولي شعرَ أنَّ شيئاً ما قد حدثَ لي و جعلني واجماً حزيناً ، و نظراتي تزدادُ شروداً و ضياعاً .

لقد عدتُ و لم أعُدْ ، فما زالتْ في قلبي جذوةٌ من نارِكَ يا جبلَ النار ، و ما زال يغمرني نورُ قمرٍ مكتملٍ ، و رذاذُ ماءٍ منعشٍ ، و عطرُ وردٍ نديٍّ ، و غابتْ عن مخيلتي صورُ الصحراءِ بقسوتِها و جفافِها ، لا بل صارتْ وعداً مأمولاً ، عدتُ

بعبارةٍ واحدةٍ اختصرتْ اللغةَ ، عبارةٌ أملتها الروحُ فنطقَها اللسانُ : (شَبْ خِير دِلْ بَرَمْ) و كأنّني كنتُ في شوقٍ لأن أنطقَها منذُ أمدٍ بعيد ، و كأنّي كنتُ على موعدٍ تأخَّر كثيراً ، و وعدٍ محتمَلٍ مع تلك المدينةِ القصيّة .

شجرة القتيل

خبر : (قام عناصرُ من تنظيم داعش الإرهابي بذبح عددٍ من أهالي قرية ... بحجة أنهم لا يلتزمون بتطبيق أحكام الدين الإسلامي ، و جديرٌ بالذكر أن هذا التنظيم الإرهابي يعتمد سياسة القتل ذبحاً بالسواطير لبثِّ الرعبِ و الخوفِ في كل مدينةٍ أو بلدةٍ يدخل إليها)

- ترى هل سأموت ذبحاً ؟

****

1969

عمري 3 سنوات ، أصبتُ بالربو الطفولي ، كنتُ أعاني من ضيقٍ في التنفس حيث تتشنجُ القصبات و لا يدخلُ الهواء إلى رئَتَيَّ ، لذلك رافقني طوالَ عمري خوفٌ من أن أموتَ اختناقاً ، شعورٌ صعبٌ جداً أن تشعرَ بالحاجةِ إلى الهواء .. إلى الأوكسجين ، لكنَّ صدركَ مغلقٌ ، نبضاتُ قلبكَ تزدادُ خفقاناً ، و أضلاعُ صدرِكَ تعلو و تهبط بسرعة ، و لكنْ لا هواءَ يدخل إلى الرئتين ، نصفُ شهيقٍ و نصفُ نفَسٍ ، تستمر الحالةُ حوالي الساعة أو تزيد ، و بين الحين و الآخر تدخل دفقةُ هواءٍ تجعلك حياً . هذا الضيقُ في التنفس ما يزال يعاودني بين الحين و الآخر ، خاصةً عندما أشعر بحزنٍ عميق ، لذلك تغلغل في نفسي الخوفُ من الموتِ اختناقاً ، كنتُ أسأل نفسي :

- تُرى أيُّهما أصعبُ الموتُ اختناقاً أم الموتُ ذبحاً ؟

لا أدري ، يقولون الموتُ هو الموت ، تعدَّدتْ الأسبابُ و الموتُ واحد ، لم يرجع أحدٌ من الموت ليخبرَنا عن مصاعبِه و أهوالِه ، يقولون أيضاً إن الإنسان المؤمن يموت ميتةً سهلةً ، تخرج روحه من جسده كالشعرة من العجين ، أما الكافر فتكون سكراتُ الموت عليه طويلةً و مؤلمةً ، هكذا قالت لنا أمي عندما توفيت جدتي رحمها الله ، التي نامتْ و لم تستيقظ ، لم نشعر بأيِّ صوتٍ أو حركةٍ لها ، إيـــه .... يا أمي لا بد أنك تفكرين بنا كثيراً و تشعرين بالقلق علينا ، طلبتِ مني كثيراً أن نتركَ بيتنا هذا و نعودَ إلى منزل الأسرة ، صحيحٌ أنَّه صغيرٌ لا يتسع لنا جميعاً ، لكنه أكثر أمناً و سلاماً ، كلَّما سمعتِ خبراً عن حادثةٍ أو تفجيرٍ تتصلين للاستفسار عن وضعنا و الاطمئنان علينا ، إنه قلب الأم الذي يبقى قلقاً على الأولاد حتى لو أصبحوا آباءً و كَبِروا . تحضرني الآن ذكرياتٌ كثيرةٌ عن أمي ، حين بلغتُ العاشرة من عمري ، و في إحدى السهرات

حيث يسترسل أهلي في أحاديثهم ، و يتطرّقون إلى الكثير من الحكايات و الوقائع و الذكريات ، روتْ لنا أمي ما بين الجِدِّ و المزاح أنني عندما بدأتُ أتعلَّم النطقَ ، و كان عمري حوالي السنتين أو الثلاث سنوات بدأتُ أتلفظُ ببعض الكلمات عن زوجتي و أولادي ، و عن ضيوفٍ جاؤوا إلى بيتي ، كان عددهم أكثرَ من عددِ الكراسي الموجودةِ في المنزل ، فطلبتُ من زوجتي أن تذهبَ إلى الجيران لتستعيرَ بعضَ الكراسي ، و حين ذهبتْ و أصبحتُ وحيداً معهم ... ذبحوني .

ذاتَ يومٍ سألتُ أمي جاداً عن صحةِ ذلك ، فروتْ لي من جديد أنني فعلاً كنتُ أتلفظ ببعض الكلمات عن زوجةٍ و أولاد و ضيوف ذبحوني ، في حياتي السابقة ، قلتُ لها : لكنني لا أذكر شيئاً من ذلك ، فحاولتْ تغييرَ الحديث و شغلتْ نفسَها بما بين يديها من عمل ، و كلفتني بإحضار بعض الحاجات ، بما يعني عدمَ الاسترسال في الحديث عن هذا الأمر . في أحيان أخرى كانت أمي حين أسالها عن الموضوع تنفي و تقول : هي قصصٌ و خرافاتٌ غيرُ حقيقية ، ثم تعود في مراتٍ تالية لتتحدَّثَ عن الأمر جادةً ، أبي لم يكن يتدخل أبداً ، و إنما كان ينظر إليها نظرةً ذاتَ مغزى ، و في إحدى المرات تمَّ فتحُ الموضوع بحضور بعض أقربائنا ، في سياق أحاديث كثيرة عن فلانٍ الذي تحدث عن حياته السابقة ، أو فلانة أو ... الخ . حينها قال أبي جملةً واحدة :

- أمُّكَ هي السببُ ، خافتْ أن يعلمَ قاتلوك أنك عِشتَ مرةً أخرى فيعودوا لقتلك ، لذلك صارتْ تُطعمك من فمها حتى تنسى حياتك السابقة .

هي قناعة في مجتمعنا أنَّ الأم إذا أطعمتْ ابنها اللقمة بعد أن تلوكَها في فمها ينسى حياته السابقة ، و لا يعودُ إلى ذاك الحديث. لكنني لم أنسَ ، و بقي هاجسُ هذا الموضوع حاضراً في ذاكرتي ، و أُضيفَ إلى تخوُّفي من الموت اختناقاً تخوُّفٌ جديدٌ ازداد حضورُه مؤخَّراً كسؤالٍ معذِّبٍ : تُرى هل سأموتُ ذبحاً ؟

*****

غيَّرتُ المحطةَ التلفزيونية ، ضاقَ صدري و شعرتُ بالحاجة إلى الخروج من البيت للمزيدِ من الهواء النقيِّ الغنيِّ بالأوكسجين ، الوقت مساء و النسمات باردات في هذا الفصل الشتائي ، تجوَّلتُ في الشوارع الخالية إلا من بعض المارة ، و الفكرة ما زالت تشغل بالي و تثير في نفسي الخوفَ و الهلع , أخبارُ اجتياحِ هؤلاء القتلة للقرى و المدن و البلدات تغزو وسائلَ الإعلام في العالم

قاطبةً ، يجتاحون المدنَ كالجراد و يعملون بسكانها قتلاً و ذبحاً ، ترى هل يصلون إلى حيث أقيم ؟

لم أبتعد كثيراً عن المنزل ، تمشيتُ في الشوارع القريبة منه ، تمرُّ بين الحين و الآخر سيارة أو بعضُ المارة ، لكنَّ الفراغ و الظلام هما سيدا المكان ، زوجتي و أولادي يتابعون ما يُعرَض على التلفاز من برامج ، كلنا نكتم ما بداخلنا من مشاعر يتقاسَمها القلقُ و الخوفُ حيناً ، و استبعادُ أن يحصلَ مثلُ هذا الأمرِ في منطقتنا السكنية الحديثة حيناً آخر ، فهي محاطة بالحواجز الأمنية لحمايتها و بالقرب منها ثكناتٌ عسكرية ، إذنْ فلا مجالَ لتسللِ هؤلاء إليها ، لا .. لا .. لا يمكن أن يصلوا إليها ، و هكذا كنا نركن إلى هذا الشعور الذي يبعث في النفس نوعاً من الاطمئنانِ الحَذِر ، و لكنْ مهلاً ... تذكَّر جيداً أنهم دخلوا إلى مساكن عدرا العمالية و هي ضاحيةٌ حديثةُ البناء ، و عملوا فيها مجازرَ يهولُ لذِكرِها المرءُ .. الذبحُ و القتلُ و الحرقُ في الأفران و... الخ .

- ترى هل سأموت ذبحاً ؟

*****

صيف عام 1978

أقيم في مدرستنا مهرجانٌ رياضيٌّ كبير لم أعد أذكر تفاصيله ، و لكنْ ما لم أنسَهُ أبداً هو ذاك المنظرُ الذي لم يغب عن مخيلتي ، باحةُ المدرسة مليئةٌ بالطلاب الذي يقدِّمون لوحاتٍ رياضيةً ضمن المهرجان ، الناس سعداء مسرورون ، كنتُ مع بعض رفاقي قد تسلقنا سور المدرسة و جلسنا عليه لنتفرَّجَ على العروض الرياضية ، فجأةً ظهر شابٌّ في الثلاثين من عمره يُلوِّحُ بيديه للحضور و قد برز في صدغِه الأيسر مقبضُ سكينٍ بنيُّ اللون ، أمَّا نصلُها فقد دخل في الرأس ، انقلب الاحتفال رأساً على عقب و تحوَّلَ إلى صخبٍ و هرجٍ و مرجٍ ، أنا لم أستطع تحمُّلَ المنظر ، ركضتُ باتجاه البيت لا ألوي على شيء ، وصلتُ منهاراً من التعب و الخوف ، رأتني أمي على حالتي تلك فسألتني عمَّا بي ، لم أستطعْ الإجابة كنتُ أشير بيدي إلى صدغي الأيسر و .... لم أعد أذكر شيئاً . بعد ثلاثة أيام استيقظتُ .. أهلي يتجمَّعون حولي ، و أمي تبكي ، علمتُ منهم فيما بعد أنني دخلتُ في غيبوبةٍ و ارتفعتْ حرارتي و كنتُ أهذي بكلامٍ عن سكين في الرأس .

بعد ثلاث سنوات كنتُ في المرحلة الإعدادية ، هربنا من حصة الدرس أنا ورفاقي و ذهبنا لنلعبَ لعبة (الفيشة) اقترحوا أن نذهبَ لمحل ناجي حيث توجد

فيه ثلاثُ طاولات فيشة ، و هناك كانت المفاجأة ، إنه الشابُ نفسه الذي رأيته و السكين في صدغه الأيسر ، إنه ما يزال حياً يُرزق ، كيف ؟ سألتُ عن الموضوع تذكَّره بعضُهم و أجابني أحدهم قائلاً :

- صحيحٌ ما تقول لقد ضربه بالسكين شخصٌ غريبٌ عن المنطقة قصيرُ القامة كان ناجي يسخرُ منه لقِصَرِ قامته ، و تشاجرا فما كان من ذاك الغريب إلا أن قفز ليطاوِله و أولج السكينَ في رأسه ، و لكنْ بما أن ناجي – كما تراه - يعاني من شللٍ في نصفه الأيسر ، و هو يعرج في مشيته و يده اليسرى مشلولة ، لذلك لم يمتْ و بقي حياً .

أصبحنا نقصد محله للَّعبِ في ساعات الفراغ ، و كنتُ أراقبه خلسةً مدققاً في أثر الطعنة الباقي كتجعيدة فوق سالفه الأيسر ، يبدو أنه نسي ما جرى له ، و يعيش حياته منسجماً مع شلله ، أما أنا فمازلتُ أتذكر ذلك الموقفَ و كأنه حدث بالأمس ، و أستحضرُ صورةَ السكين ، لتتداعى إلى ذهني الصورةُ المتخيَّلةُ الأخرى من حياتي السابقة المنتهية بالذبح ، فأشعرُ بغصةٍ و مرارةٍ و أتساءل :

- ترى هل سأموت ذبحا ؟

*****

صيف العام 2008

أتذكر جيداً أن حلماً كان يراودني منذ أن وعيتُ ، كلَّ سنتين أو ثلاث سنوات يأتيني ، فأرى نفسي فيه محلِّقاً كطائرٍ في منطقةٍ جبليةٍ مرتفعة ، على سفحِ أحدِ الجبال غابةٌ من أشجار الكستناء ، و شجرةٌ كبيرةٌ معمّرةٌ تنفرد وحيدةً و تفردُ ظلَّها على مساحةٍ كبيرةٍ من الأرض ، الفصلُ خريف و اللونان الذهبيُّ و البنيُّ هما الطاغيان على المنظر ، و كأنَّ الطبيعة منتعشةٌ بعد زخَّةٍ من المطر ، حين أستيقظ أروي الحلمَ لأهلي مستغرباً أنَّني لم أشاهدْ مثلَ هذا المكان أبداً ، و تمضي السنون تباعاً ، في هذا العام خطرَ لي أن أتجوَّلَ برفقةِ زوجتي و أولادي بسيارتِنا بين القرى و الجبالِ في أماكنَ لم نزُرْها سابقاً عسى أن نعثرَ على مكانٍ جميلٍ نتناول فيه طعامَ الغداء ، و هناك كانت المفاجأة ، في إحدى المناطق رأيتُ المنظرَ نفسَه الذي كنتُ أراه في الحلم و بكلِّ تفاصيله ، شعورٌ بالدهشة ينتابني ، توقفتُ أتأمَّلُ المنظرَ ، سألتني زوجتي : ما بك ؟ فأخبرتها بما بي و كنتُ قد قصصتُ لها عن الحلم ، فازدادتْ دهشةً ، بحثتُ عن شخصٍ ما أتحدَّث إليه ، رأيتُ رجلاً متوسطَ العمر يجلس أمام بيته ، تقدَّمتُ بالسيارة حتى أصبحتُ قربه ، نزلتُ و أخذتُ أسأله عن اسم المنطقة ، و بينما هو يجيبني أتفحَّصُ أنا

المكانَ بنظري ، سألته عن تلك الشجرةِ المعمّرة المنفردة التي تغطي بظلِّها مساحةً كبيرةً ، كما كنتُ أراها في الحلم تماماً ، فقال :

- هذه شجرةُ القتيل .
- أيُّ قتيل ؟ سألتُ . فأجابني :
- هناك في ذاك البيتِ القديمِ المهجور قربَ تلك الشجرة قام بعضُ الأشخاصِ الغرباءِ عن القرية بذبحِ صاحبِ البيت ، جاؤوا إليه متنكِّرين بزيٍّ ضيوف ، لم يَعرِفْ أحدٌ من أهلِ القرية السببَ ، و عندما كبر أولادُ القتيل هجروا البيت ، و لم نعد نعرفُ عنهم شيئاً ، و مِن يومِها صار أهلُ القرية يطلقون على الشجرةِ اسمَ (شجرة القتيل) ، منذ ذلك العام لم يعدْ ذاك الحلمُ يأتيني أبداً ، لكنَّ هاجسَ الذبح يحضرُ في ذهني دائماً ، و في ظلِّ ظروفِ الحرب الحالية كنتُ أسائل نفسي :
- ربّاه .. هل يُعيدُ التاريخُ نفسَه ؟ و هل سأموتُ مرةً أخرى مذبوحاً ؟

*****

كدتُ أصطدم بشجرةٍ مزروعةٍ على الرصيف تفردُ أغصانَها العارية غيرَ المشذبة ، يبدو أنني شردتُ عن نفسي ، حاولتُ تجنُّبَها و النزولَ عن الرصيف ، فإذا بسيارةٍ مسرعةٍ خُلقت فجأةً بمواجهتي ، يبهر ضوؤها بصري فلم أعد أرى شيئاً ، تساءَلتُ و لثوانٍ معدودةٍ بين الوعي و اللاوعي / الجِدِّ و المزاح :

تُرى هل ستصبحُ هذه أيضاً شجرةَ القتيل ؟؟!!

*****

سَفرٌ على مقامِ الشرق

لم يكن قد مضى على وصولي إلى المنزل أكثرُ من عشرِ دقائق ، خلعتُ خلالها ملابسي و ارتديتُ ملابسَ الراحة ، و جلستُ لتناول طعام الغداء قبل قيلولة الظهيرة ، رنَّ الهاتفُ بإلحاح ، قمتُ عن طعامي بامتعاض و رفعتُ السّماعة متسائلاً بيني و بين نفسي : مَنْ هذا الثقيلُ الذي يتصل في هذا الوقت ، كان أخي على الطرف الآخر ، ألقى في مسامعي خبراً جعلني مذهولاً ، طالباً مني الحضور إلى القرية بأسرعِ وقتٍ ممكنٍ ، قال ما لديه بسرعةٍ و اختصار ، و كان ذلك أقصرَ و أسوأَ اتصالٍ هاتفيٍّ أتلقّاه في حياتي ، طلبتُ من زوجتي التي صارتْ مثلي مذهولةً و مندهشةً بعد أن سمِعتُ الخبرَ أن تُسرعَ بإطعام الأولاد لنتهيأ للسفر فوراً ، جهّزنا أنفسَنا و أمتعتنا فقد تطولُ فترةُ بقائنا هناك ، توجّهنا إلى مركز انطلاق الباصات ، وجدنا باصاً على أهبةِ الانطلاق ، اتخذنا مقاعدنا فيه ، فانطلق متمهلاً بدايةً حتى خرجَ من المدينة ، ثم زاد من سرعته ، ثلاثُ ساعاتٍ حتى نصلَ ، كيف سأمضيها ؟ بعدَ هولِ الخبر لم أتكلم مع و زوجتي ، الأولاد ما زالوا صغاراً و لا حاجةَ للحديثِ معهم حول هذه الأمور ، الحياةُ أمامَهم ، و ستعلِّمُهم كلَّ شيء ، بدأ الباص يصعدُ طلعةَ الثنايا ، الساعةُ الآن الرابعةُ و النصف موعدُ قيلولتي ، أشعرُ أنَّ أجفاني تتداعى و سلطانُ النومِ يجثو عليَّ بكلِّ ثقله ، نظرتُ إلى الأولاد لقد ناموا و كأنَّهم في أسِرَّتهم ، زوجتي تنظرُ من النافذة إلى الأراضي القاحلةِ الممتدةِ على طرفَي الطريق ، و أنا مسترخٍ أمامَ سطوةِ النوم ، يجبُ أن أنامَ الآن فأمامي وقتٌ طويلٌ من التعبِ و الجهد ، و بينما أنا أفكِّر بذلك غفوتُ على اهتزازِ الباص الذي يشقُّ طريقَه غيرَ مبالٍ بحالي و أفكاري و هواجسي .

*****

الغفوة الأولى

ـ لا بدَّ لنا مِنَ العودةِ إلى الشرق مهما طالَ بنا الزمنُ هنا .

سمعتُ أبي كثيراً يردِّد هذه العبارة ، في البدايةِ لم أكنْ أعرفُ معناها أو المرادَ منها ، لكنَّها كانتْ تثيرُ الغيظَ في قلبِ أمي فكانت تعارضُه دائماً بالقول :

ـ لن نعودَ .. ما مضى ، مضى و انقضى ، و هذا حلمٌ بعيدُ المنال .

عندما كبرتُ قليلاً علمتُ المغزى الذي كان أبي يريدُه من تكرارِ هذه العبارة :

(العودة إلى الشرق) و لكنْ أيُّ شرق ؟ و أيُّ عودة ؟ و لماذا ؟

امتدتْ الأيامُ و كبرَ الأولادُ و صاروا سنداً للأمِّ في موقفِها الرافضِ لفكرةِ العودةِ هذه ، و بقي الأبُ وحيداً يكرِّرُ عبارتَه على مسامعنا حيناً ، و لنفسه أحياناً كثيرة بعد أن صرنا جميعاً ضد الفكرة ، لكنه في السنواتِ العشرِ الأخيرة لم يَعُدْ يقلها أبداً ، و كأنَّها لم تكنْ ترِدُ في حديثه ، نسيها تماماً ، و حين نذكِّرُه بها أو نسأله هل ما يزالُ راغباً بالعودة إلى الشرق ، يأخذُ الأمرَ من بابِ الفكاهة و المزاح و يتجنَّب الخوضَ فيه .

الشرق ... الشرق ... هذا الاتجاه كان يوحي لي بالقِدَم .. بالأصولِ .. بالجذورِ و الأجدادِ .. و بالموت ، تُرى لهذا السبب يوجِّهون وجهَ الميتِ باتجاهِ الشرق ؟ سؤالٌ لم أعرفْ له إجابةً ، لكنَّه بقي هاجساً متعِباً لي ، كلما خلوتُ إلى نفسي أفكر به ، لكنْ مع مرورِ السنوات و ظروفِ الحياةِ و مشاغلِها نسيتُ الموضوعَ برمتِه ، حتى جاءني هذا الاتصالُ الهاتفيُّ ، الذي أعادَ إحياءَه في نفسي من جديد ، و يبدو أنني اليوم سأتعرَّفُ إلى السببِ عن قرب .

فتحتُ عينيَّ على توقُّفِ الباص بعد أن دخلَ إلى إحدى الاستراحاتِ المنثورة على جانبَي الطريق ، أبلغ معاونُ السائق أنَّ بإمكانِ المسافرين النزولَ لقضاءِ حوائجِهم أو تناولِ الأطعمةِ و المشروباتِ و لمدةِ ربعِ ساعةٍ فقط ، تبادلنا أنا و زوجتي النظرات و فهِمنا أنْ لا أحدَ منَّا لديه الرغبةُ بالنزول ، الأولادُ ما زالوا بين نومٍ و استيقاظٍ قصير .

*****

الغفوة الثانية

انتهتْ مدةُ الاستراحة و انطلقَ الباص مكملاً السفر ، و عدتُ ثانيةً إلى الاسترخاء و تأمُّلِ المساحاتِ الجرداء على طرفَي الطريق ، و عادتْ بيَ الذاكرةُ خمسةً و عشرين عاماً ، آنذاك اشترى أبي سيارة بيك آب أملاً بأن يُحَسِّنَ من وضعِه المالي ، و يتركَ العملَ المُجهدَ الذي يقومُ به في معملِ البلوك ، لقد أمضى عقداً من الزمن في هذا العمل المضني ، لذلك قرَّر أن يشتريَ سيارةً و يعملَ عليها ، صحيحٌ أنَّه لا يعرفُ قيادتَها لكنَّه سيتعلَّمُ و يستخرجُ رخصةَ قيادة ، ما زال في العقدِ الرابعِ من عمره ، و قدرتُه على التعلم موجودةٌ خاصةً إذا ترافقت مع الإرادةِ و الرغبةِ ، أمِّي لم تكنْ ترغبُ بذلك و عارضته بشدة خوفاً من حوادثِ السيرِ التي تسمعُ بها أو تلك التي تراها تقعُ على الطريقِ المجاورِ للمنزل ، كانتْ تقول له أنتَ تعلمُ أنَّه لا أهلَ و لا أقاربَ لنا هنا ، و إذا حصل لكَ أيُّ مكروهٍ لن نجدَ مَنْ يساعدُنا ، و تُذكِّرُه بالماضي فهي لم تنسَهُ أبداً ، لم تنسَ أنَّها تزوجته رغماً عن أهلها ما اضطرهما

لتركِ المنطقةِ كلِّها و المجيءِ إلى هذه البلدةِ حيث لا يعرفُهما أحدٌ ، لكنَّ ذلك لم يُجدِها ، في عصر أحدِ الأيام و بعدَ أن أنهى عملَه في البلوك ركبَ السيارةَ قاصداً مركزَ المنطقة لشراءِ حاجاتِ المنزل و كان قد تعلَّم قليلاً قيادة السيارة ، قال لأمِّي إنَّه سيقودها بحذرٍ و بطءٍ فلا داعيَ لخوفِها و تحذيراتِها المُبالَغِ بها ، مضتْ حوالي نصفِ ساعةٍ أو أكثر بقليل ، و جاءنا الخبر ، علمنا فيما بعد أنَّ شاحنةً كبيرةً قد صدمتْ السيارةَ من الخلف ما أدّى إلى سقوطِها و انقلابها جانبَ الطريق ، السيارة تحطَّمتْ و أبي أصيبَ بكسورٍ و تمزُّقٍ بالبطنِ و المثانةِ ، تمَّ إسعافُه إلى المشفى الوطني في المحافظة ، و حين وجدوا حالته صعبةً نقلوه إلى مشفى العاصمة ، هناك بقي ستة أشهرٍ طريحَ الفراش ، و أكملها بستةٍ أخرى في المنزل ، و إثرَ ذلك لم يعدْ قادراً على القيامِ بأيِّ عملٍ مُجهدٍ ، و صار عبءُ الأسرة على عاتق أمي التي تحمَّلتْ ذلك بقوةِ الرجال . كنا صغاراً آنذاك بعمر أولادي الآن ، لم ندركْ قسوةَ ما جرى ، السيارةُ التي اشتراها الوالدُ بكلِّ ما ادَّخره و استدانَهُ بِيعتْ بأبخس ثمنٍ لتسديدِ ما تبقَّى من ثمنِها ، و عاد وضعُنا الماليُّ إلى نقطةِ الصفر . أصيبَ أبي بكسرٍ في شخصيتِه و رجولتِه ، و أصبحَ أقصى طموحِنا تأمينُ حاجياتِ المنزل بحدِّها الأدنى بلا رفاهيةٍ أو زيادة ، حتى لا نمُدَّ يدَ الحاجةِ للجيران ، و بذلك لازمَنا الفقرُ .

*****

الغفوة الثالثة

كلَّ يومٍ كنتُ أصحو على صوتِ أبي يرتِّل القرآنَ بلغةٍ مكسَّرةٍ ، و لكنْ بخشوعٍ نبيلٍ ، يستيقظ مبكراً في الصباح ، بعد قراءةٍ قصيرةٍ لا تتجاوز ربعَ الساعة يجهّز نفسَه للذهابِ إلى العمل ، يتناول زوّادتَه و يخرج ، يعودُ إلى البيت بعدَ الساعةِ الرابعة عصراً ، الآنَ على اهتزازِ الباص أتذكَّرُ كلَّ تلك التفاصيل التي كنتُ أحياناً لا أبالي بها ، بل كنتُ أحيانا أتذمَّرُ و أنزعج منها ، فبيتُنا ضيّقٌ مؤلَّفٌ من غرفةٍ واحدةٍ و مطبخ ، و استيقاظُ أبي المبكر يومياً كان يزعجُنا رغمَ أنه يتحرَّك بهدوءٍ و حذَرٍ ، أحاول الآنَ أن استحضرَ وجهَ أبي ، ملامحَه ، لونَ عينيه ، لكنَّني لا أستطيعُ ، تنتابني حالةٌ من البكاءِ الداخليِّ المؤلم ، و أتساءلُ هل يُعقل أنني لا أقدرُ على تخيُّلِ وجهِ أبي و لونِ عينيه رغمَ أنّنا عِشنا معاً أكثرَ من ثلاثين عاماً ؟؟!! أشعرُ الآنَ كأنَّني لم أره أبداً ، أندم أنني لم أملأ عينيَّ مِنْ وجهِه ، لم أتأمَّل في ملامحِه و عينيه طويلاً ، أشعرُ بالحاجةِ إلى ضمِّهِ إلى صدري بشدَّةٍ حتّى ينبضَ قلبُه في صدري ، نعم .. و لكنْ عبثاً ربما لن يتحققَ ذلك ، فقد (شرَّق) أبي ، صحيحٌ أنَّنا كنّا نعيشُ في بيتٍ واحدٍ ، و لكنْ كنَّا في عالَمين منفصلَين ، لقد تربَّى و ربَّانا أيضاً على كتمانِ

المشاعرِ و العواطف ، نُبقيها تحزُّ في قلوبِنا و لا نُفصحُ عنها ، و ها قد جاءتْ هذه اللحظةُ لنكتشفَ أننا لم نكنْ معاً أبداً ، لم تجمَعْنا علاقةُ أبٍ بابنِه ، بما فيها مِن أريحيةٍ و مودَّة ، بل كانت علاقةً رسميةً جادّةً و جافةً ، هكذا تعامَلَ جدِّي مع أبي ، و هكذا تعامَلَ أبي معنا ، و يبدو أنّنا سنتعاملُ مع أولادِنا كذلك ، رغمَ إدراكِنا لمرارةِ هذه المعاملةِ في النفس ، تربَّينا أن نخجلَ من إظهارِ عواطفِنا ، حتى أصبحنا نجدُ راحتَنا النفسيةَ خارجَ البيت ، و صارَ البيتُ قيداً لنا ننتظرُ وقتَ الخروجِ منه للانطلاقِ إلى ما نُحبُّ ، تباً لك أيَّتها الحياةُ ، تباً لك أيُّها الموتُ ، و تباً لك أيُّها القلبُ كيف تغدرُ بنا في لحظةِ الأمانِ و السلام ، حين نطمئن إلى يقينِ العيش (كلُّنا نعلمُ أنَّنا سنموتُ يوماً و لكنْ لا أحدَ يرغبُ بتصديقِ هذه الحقيقة) لقد عبَّر إريك ماريا ريمارك الكاتبُ الألمانيُّ عمَّا نشعرُ به جميعاً ، عن مداهمةِ الموتِ لنا على حين غرَّة ، و كأنَّنا نتوقَّعُ الخلودَ في الدنيا .

وصلَ الباصُ إلى محطتِه الأخيرةِ ، نزلَ الركابُ منه بسرعةٍ تغمرُهم سعادةُ الوصول ، و اتخذَ كلُّ واحدٍ منهم طريقَه ، نظرتُ إلى زوجتي ، أيقَظْنا الأولادَ ، و نزلنا من الباص على مهلٍ مبطِئين ، متعَبين ، حائرين ، و غيرَ مصدِّقين أنَّ هناك مَنْ ينتظرُنا لنتوجَّهَ به و معَه نحوَ الشرق . لحظَتئذٍ استعدتُ ما قالَه أخي عبرَ الهاتف :

ـ تعالَ فوراً ، نحن في المشفى الآن ، أبوك شَرَّق ، سننتظرُكَ لاستكمالِ الإجراءاتِ المعروفة .

أبي مات ؟؟!! كيف حدثَ ذلك ؟ قبلَ أقلَّ من شهرٍ كنتُ في القرية و قد كان في غايةِ الصِّحةِ و الحيويةِ حتّى إنَّني قلتُ له مازحاً :

- ما شاءَ الله يا أبي تبدو مشرقاً ، وجهُكَ مورَّدٌ ينضحُ بالصّحة .

فتبسَّمَ و لم يقلْ شيئاً . تُرى الآنَ أيُّ ابتسامةٍ ستكون مرسومةً على وجهِه ؟؟؟

وقائع قبل النوم

(كلُّنا خرجنا من معطفِ غوغول) تحضرُ هذه المقولةُ لدوستويفسكي كثيراً في ذهني هذه الأيام ، كما تحضرُ صورةُ أكاكي أكاكيفيتش بطلِ القصةِ الفقيرِ و البائسِ و هو يصارعُ الحياةَ و الفقرَ و البردَ و روتينَ العملِ بلامبالاةٍ غريبةٍ ، هو ينقرُ على آلتِه الكاتبة ، و أنا أنقرُ على جدارِ هواجسي ، يبدو أنّني دخلتُ في معطفٍ من الأفكارِ و التوقُّعاتِ و الظّنون لن أخرجَ منه سالماً معافى .

****

- لقد جهَّزتُ نفسي لهذه اللحظة منذ سنواتٍ و هي آتيةٌ و لا بدّ خلال هذا العام .
- ألا تعتقدُ أنَّك تبالغُ في الأمر ؟ أقصدُ أنَّك تتعاملُ مع الموضوعِ و كأنك متأكدٌ تماماً من وقوعِه ، أرجو ألا تنسى أنّ الإنسانَ رغمَ كلّ التطوُّرِ العلميِّ ما زال جاهلاً في علمِ المستقبل .

استمعتُ إليه جيداً ، و هو يكرِّرُ هذا الكلامَ للمرةِ العشرين كما أظنُّ ، دونَ أن يغيِّرَ من وجهةِ نظري شيئاً ، فأنا بناءً على بعضِ الأحداثِ و الوقائعِ التي جرتْ معي توصَّلتُ إلى هذه النتيجة .

كنتُ أستحمُّ كلَّ يومٍ قبلَ النوم إذ ربما لن أفيقَ من نومي ، و هذه أمنيةٌ قديمةٌ لي أن أموتَ طاهراً نظيفاً و أنا نائمٌ في سريري بهدوءٍ و صمتٍ ، بلا عذاب . بكلِّ أريحيةٍ و جلال .. هكذا تغمضُ عينيكَ ، تودِّع مَنْ حولَكَ ، تتمدَّدُ في سريرِكَ ، و تَمضِي .

لم أخبر أحداً بأفكاري هذه ، فقط صديقي وحيد المقرَّبُ منِّي الذي أمضي معه السنواتِ القليلةَ الأخيرةَ في عزلتي الاختياريةِ التحضيرية .

لم أكن راغباً في إطلاعِه على هواجسي هذه ، لكنَّ إلحاحَه بعد أن لاحظ عليَّ بعضَ التصرفات جعلني أبوحُ له بهذه الهواجسِ التي باتت قناعةً لديَّ و على أساسِها أتصرَّفُ ، قبلَ عشرِ سنوات من الآن و أنا أفكِّرُ بالأمر ، كنتُ أعُدُّ السنواتِ عاماً بعد عامٍ حتى وصلتُ إلى سِنّ التقاعدِ ، قررتُ عدمَ محاولةِ تمديدِ خدمتي إطلاقاً رغمَ نُصحِ بعضِ الأصدقاءِ لي بفعلِ ذلك ، أمامي ثلاثُ سنواتٍ يجبُ أن أتصرَّف فيها و أستغلَّها كما أحبُّ حتى أودِّعَ الحياةَ مطمئناً راضياً ، اعتزلتُ الناسَ في بلدتي ، أُمضي نهاري منذ الصباح ببعضِ الأعمالِ الزراعية في فسحةِ أرضٍ صغيرةٍ قربَ المنزل ، أستمعُ للأغنياتِ التي أحبُّها ، أشاهدُ

بعضَ البرامج التلفزيونية ، و أقرأ كثيراً و قد نقلتُ معظمَ مكتبتي إلى هنا ، أشتري أحياناً بعضَ الكتبِ الصادرةِ حديثاً ، و أعيدُ قراءةَ كتبٍ قرأتُها حين كنتُ شابّاً في المرحلةِ الثانوية أو الجامعية لأستذكرَ ذلك الزمنَ بوقائعِه و تفاصيلِه ، أستمعُ إلى بعضِ الموسيقا الهادئة ، موزارت كثيراً ، بحيرة البجع لتشايكوفسكي ، حلاق إشبيلية لروسّيني ، شهرزاد لكورساكوف ، و أغرقُ في النومِ الأخير .

ذاتَ ظهيرةٍ ، تمدَّدتُ في وحدتي ، تأمّلتُ من نافذتي التلالَ البعيدة ، تمثّلتْ أمام ناظري صورةُ طفلٍ يسعى في شِعابِها و دروبِها الوعرة ، يحلمُ بعالمٍ جميلٍ و مستقبلٍ مليءٍ بالسعادةِ و الثراءِ ، بمنزلٍ واسعٍ و أنيق ، بعملٍ مريحٍ و دخلٍ مرتفعٍ ، بكلِّ ما لا تملكه الآنَ أسرتُه ، شعرتُ بغصَّةٍ في الحلق ، و عدتُ بنظري إلى الطاولة بقربي و عليها بعضُ الكتب التي أرغبُ في قراءتِها لتكونَ بمتناولِ يدي :

1 – رواية (زينب و العرش) للكاتب المصري فتحي غانم ، كنتُ قد قرأتُ عدة صفحاتٍ من بدايتها و تذكَّرتُ أنَّني اشتريتُها في دمشق من بائع كتبٍ على عربةٍ كان ينادي : أيُّ كتابٍ بخمسِ ليرات . كان ذلك عام 1987 في ذاك العام جرتْ معي واقعةٌ لن أنساها أبداً ، بتاريخ 1987/4/7 عمري واحد و عشرون عاماً قرَّرتُ السفرَ إلى بلدتي لسببين الأول بسببِ وجودِ عطلةٍ لمناسبةٍ وطنيةٍ ، و الثاني بسببِ انتهاءِ مصروفي الشهريّ ، استيقظتُ باكراً كي ألحقَ بأوّلِ باص ينطلقُ من كراجات العباسيين (الهوب هوب) في الساعةِ الثامنةِ و النصف صباحاً ، و بذلك أصلُ باكراً باعتبارِ العطلةِ ثلاثةَ أيامٍ فقط ، و أريدُ التمتُّعَ بها كاملةً ، و لكنْ بسببِ ازدحامِ المواصلات تأخَّرتُ ، فلم ألحقْ بالباصِ الأول ، ما يعني انتظاري لموعدِ الباص التالي الذي ينطلقُ في التاسعةِ و النصف ، و هذا ما جرى ، حسناً لا بأس ، وصلتُ إلى البلدةِ حوالي الساعةِ الواحدةِ ظهراً كلُّ شيءٍ عاديٌّ و طبيعيٌّ ، و لكنْ ما أنْ حلَّ المساءُ حتى بدأتْ الاتصالاتُ الهاتفيةُ من أقاربي في دمشق للاطمئنانِ عليَّ ، علِمتُ فيما بعد أنَّ الباص الذي لم ألحَقْ به قد وُضِعتْ فيه عُبوَّةٌ متفجّرةٌ ضمنَ حقيبةِ سفرٍ ، و قد انفجرتْ قبلَ وصولِه إلى ساحةِ البلدةِ كما قرَّر واضِعُها حتى تُلحقَ أكبرَ ضررٍ بالناس ، و لكنْ لأنَّ الباص يتوقَّفُ على الطريقِ لإنزالِ بعضِ المسافرين أو لصعودِ ركابٍ عن الطريق ، فقد تأخَّرَ عن الوصولِ إلى ساحةِ البلدة في التوقيتِ المحدَّدِ ، و وقعَ التفجيرُ قبلَ البلدةِ بمسافةِ خمسةِ كيلومترات ، و إلّا لوقعَتْ مجزرةٌ مروّعة .

أعدتُ الروايةَ إلى المنضدة ، فوقعَ نظري على كتابٍ آخر على قائمةِ القراءة .

2 – (غزليات حافظ الشيرازي) باللغاتِ الفارسية – الأرمنية – العربية التاريخ 2008/5/22 – أصفهان - كنيسةِ الأرمن ، تذكَّرتُ أنَّني كنتُ ضمنَ وفدٍ في زيارةٍ لبعضِ المعالِمِ السياحيةِ و الدينيةِ في أصفهان منها كنيسةُ (فانك) ، و قد اشتريتُ الكتابَ للذكرى ، تصفَّحتُ أوراقَه تأمَّلتُ بعضَ الرسوماتِ الفارسيةِ المستوحاةِ من قصائدِه , و عدتُ بالذَّاكرةِ إلى ذلك العام ، تحديداً 2008/8/17 عمري آنذاك اثنان و أربعون عاماً ، في ذلك اليوم كنتُ عائداً من اللاذقية إلى دمشق وحيداً في سيارتي و قد انطلقت باكراً كي أصلَ حوالي الساعةِ العاشرةِ صباحاً لألتحقَ بعملي ، الليلةَ السابقةَ لم أستطعْ النومَ كنتُ قلقاً جداً ، بقيتُ أتململُ في فراشي حتى الفجر ، بالكادِ غفوتُ قليلاً ، فلم آخذ كفايتي ، استيقظتُ ، جهزتُ نفسي للسفرِ و انطلقتُ ، كان النعاسُ يداعبُ أجفاني و أنا أقودُ السيارةَ ، أغاني فيروز تداعبُ سمعي ، الطريقُ ينفرش أمامي واسعاً رحباً خالياً من السيارات العابرة ، فالوقتُ ما زال مبكراً ، شرقَ مدينة طرطوس استيقظتُ من غفوتي على صوتِ ارتطامِ سيارتي بسيارةٍ أمامي ، و بدأ الدخانُ يخرجُ من المحرِّك ، لم أعدْ قادراً على التحكّمِ بها ، مالتْ إلى اليسار حتى ارتطمَتْ بالمُنصِّفِ الفاصلِ بين خطَّي الأوستراد ، ثم انعطفتْ إلى اليمين لتقفَ بجانبِ الطريق على جُرفٍ ترابيٍّ ، خرجتُ منها محطَّماً نفسياً ، متعَباً ، و أذكرُ آخرَ الكلماتِ التي قلتُها في نفسي و أنا أرى الدخانَ يخرجُ من محرِّكِ السيارة ، و هي تخرجُ عن سيطرتي : (لقد انتهيت) .

خرجتُ من السيارة ، جلستُ قرب الطريق ، تقدَّم مني صاحبُ السيارة التي ارتطمتُ بها ، متعجِّباً من وقوعِ الحادث ، فالطريقُ شبهُ فارغٍ من السيارات العابرة ، لم أصَبْ بأذىً كبيرٍ ، فقط جُرحٌ في الوجهِ بسببِ انفتاحِ بالونِ الحمايةِ ، و بعضُ الرضوض في أسفلِ الظهر من ضغطِ حزامِ الأمان ، السيارةُ تحطَّمتْ واجِهَتُها ، المهم السلامة ، قلتُ في نفسي .

لقد مرَّتْ الواقعةُ الثانيةُ على خيرٍ و ما زلتُ حياً . و لهذه الأسبابِ أتحضَّرُ الآنَ بكلِّ قناعةٍ و رضى للواقعةِ الثالثةِ و الأخيرةِ كما أظنُّ ، و التي ستقعُ هذا العام و قد بلغتُ الثالثةَ و الستين من عمري .

*****

اتصلَ بي صديقي وحيد يُريدني على وجهِ السُّرعةِ ، خلالَ ساعةٍ يجبُ أن أكونَ عنده لأمرٍ سيتخذ بشأنِه موقفاً أخيراً و قراراً حاسماً ، و يحتاجُ إلى مناقشتِه معي و سماعِ رأيي . حسناً إذن ، أنهيتُ المكالمة ، و بدأتُ أتذكَّرُ ما لديَّ من أعمالٍ كنتُ قد أجَّلتها من الأسبوعِ الماضي أو أكثر لأنجزَها اليوم ، فقد آنَ أوانُها ،

حتى أتأخَّرَ أكبرَ قدرٍ من الوقت ، هكذا صرتُ أتعاملُ مع الزمن ، فقد دخلتُ في العام الرابعِ و الستين من عمري ، و خرجتُ من معطفِ الأوهام و التوقُّعاتِ و الظنونِ التي حكمَتْ حياتي طوالَ السنواتِ العشرِ الماضية ، و ها أنا الآنَ أعيشُ في الوقتِ الضائع ، و صديقي سينتظرُ كثيراً ريثما أصلُ إليه ، و أُسمِعُه رأيي الذي لن يفيدَه كثيراً في موضوعِهِ الهام .

في حضرة ابن لنكك

وضعتُ الظرفَ أمامي و شعرتُ بالخزي و العارِ من نفسي ، لقد أخذتني الحياةُ بمشاغلِها و لم أفطنْ إليه ، لا بلْ نسيتُه تماماً ، و لو لم أقمْ قبلَ قليلٍ بالبحثِ عن كتابٍ أردتُ مراجعةَ معلومةٍ فيه مرَّتْ ببالي و أنا أتابعُ برنامجاً علمياً على التلفزيون لكانَ بقيَ منسياً هنا إلى أمدٍ لا يعلمُه إلا الله .

أمسكتُ بالظرف ، فتحتُه ، ألقيتُ نظرةً على ما فيه من أوراق ، و عدتُ بذاكرتي إلى اليوم الذي قدَّمَه فيه لي صديقي (ف) راجياً مني قراءتَه ، وعَدتُه حينها أنَّني سأقرؤه بهدوءٍ و تمعُّنٍ ، و قد مرَّ أكثرُ من ثلاثةِ أشهرٍ على ذلك ، فيالَخجلي منه و من نفسي .

منذُ ثلاثين عاماً لم نلتقِ ، كان عمرُنا وقتَها حوالي اثني عشرَ عاماً ، هو أخذتْه الحياةُ باتجاهٍ و أنا باتجاهٍ آخرَ ، كنتُ في مهمةٍ لإعدادِ تحقيقٍ ميدانيٍّ حولَ الصيدِ الجائرِ في البادية و آثارِه على البيئة ، ثلاثةُ أيامٍ أمضيتُها متنقِّلاً من مكانٍ إلى مكان و من قريةٍ إلى قرية ، أجريتُ فيها لقاءاتٍ مع بعضِ البدو المتنقلين بخيامِهم ، و بعضِ الفلاحين في القرى المنثورةِ في البادية ، و بعضِ الصيادين الذين التقيتُهم مصادفةً لإتمامِ موضوعِ تحقيقي ، في نهايةِ اليومِ الثالث و أنا أتأمَّلُ سهوبَ البادية التي تنداحُ أمامَ ناظريَّ إلى آخرِ المدى في لحظةِ الغروبِ و الشمسُ تلمُّ أشعَّتها ، تذكّرتُ أنني في طفولتي كنتُ أزورُ بعضَ أقاربي من جانبِ أبي ، و هم يقيمون في قريةِ تل جديد الواقعة على أطرافِ البادية ، أبعُدُ عنها الآن حوالي عشرين كيلو متراً ، في تلك القريةِ تعرَّفتُ إلى صديقي (ف) ، جمعَ بيننا حينها حبُّ الموسيقا و الغناء ، في المساءِ هو من نافذةِ بيته و أنا من نافذةِ بيتِ أقاربي نتبادلُ مواويلَ العتابا ، ليتردَّدَ صدى غنائنا بين أزقةِ القرية و دروبِها الترابيةِ و حيطانِ بيوتِها الطينية ، لقد أيقظتْ هذه الذكرياتُ الحنينَ في نفسي إلى تلك الأيام ، منذ سنواتٍ بعيدةٍ جداً لم أزرْ تلك القرية ، أقاربي تركوها و باعوا أملاكهم الصغيرة فيها و توجَّهوا للإقامةِ في المدينة ، علمتُ من خلالِ الاتصالاتِ الهاتفية أنَّ هذا الصديقَ مازال مقيماً في القرية و قد أصبحَ أستاذاً لمادةِ التاريخ في مدرستِها ، صار منغلقاً على نفسِه ، اعتزلَ الناسَ و لم يتزوَّجْ ، قررتُ اغتنامَ الفرصةِ التي ربما لن تتكرَّرَ و مفاجأةَ صديقي بزيارةٍ لن يتوقعَها لأرى كيفَ أصبحتْ الحياةُ معه ، كما أنَّها مناسبةٌ لنتذكَّرَ سويَّةً تلك الأيام الماضية .

******

كان اللقاءُ حارّاً و حميمياً جداً ، فقد تفاجأ فعلاً بزيارةٍ لم تكنْ تخطرُ ببالِه أبداً ، خاصةً بعد مرورِ هذه العقودِ من الزمن ، دخلتُ إلى منزلِه المتواضعِ الذي يبدو فوراً للناظرِ أنه يفتقرُ لِلَمَساتِ المرأة ، الفوضى في كلِّ مكان ، أمسكَ بيدي و أدخلني (محرابَه) كما أسماه ، طاولةُ مكتبٍ متوسطةُ الحجمِ عليها جهازُ كمبيوترٍ موديلُه يعودُ لمنتصفِ تسعيناتِ القرنِ الماضي ، مصباحُ مكتبٍ للقراءة ، كتبٌ منثورةٌ في كلِّ مكان ، على طربيزةٍ صغيرةٍ قربَ سريرِه تجثمُ مسجلةُ كاسيت موديل توشيبا من ثمانينياتِ القرنِ العشرين عشعَشَ الغبارُ فيها لكنَّها ما زالتْ تعملُ ينطلقُ منها صوتُ مطربٍ شعبيٍّ منسيٍّ يُدعى حسن الشريف ينوحُ بأسىً على ربابتِه ليأخذَكَ إلى زمنٍ بعيدٍ مضى ، نواحٌ أبديٌّ يَدخُلُ النفسَ و يُدخِلُها في ملكوتِ موسيقا جنائزيةٍ مجللةٍ بالحزنِ ، دمجانةُ عرقٍ بلديٍّ مِن تقطيرِه هو ـ كما أخبرني ـ تؤنسُه في ليالي وحدتِه هذه ، خاصةً في فصلِ الشتاء ، رائحتها تعبقُ في جوِّ الغرفة ، جلسنا بألفةٍ عجيبةٍ و كأنَّنا نتابعُ أمسيةً من أمسياتِ غنائنا الطفوليِّ التي مضى عليها أكثرُ من ثلاثين عاماً ، حديثٌ و ذكرياتٌ و أسئلةٌ طالتْ كلَّ شيءٍ في حياتِنا إلى يومِنا هذا ، وصلَ بنا السهرُ إلى الهزيعِ الأخيرِ من الليل ، أدرَكنا النعاسُ و النوم ، استيقظتُ حوالي الساعةِ التاسعةِ صباحاً ، لم أجدْ صديقي في البيت ، فقد التحقَ بالمدرسةِ لإعطاءِ دروسِه ، لكنَّه وضعَ إفطاراً قروياً بامتياز جاهزاً على الطاولة ، و ورقةً بيضاء تتضمَّنُ رسالةً يعتذرُ فيها عن اضطرارِه للخروجِ إلى المدرسة ، كما تمنَّى عليَّ أن أبقى لأطولِ مدةٍ ممكنةٍ إذا كان بمقدوري ، و تحتها ظرفٌ بُنيُّ اللون و كتبَ عليه ما يلي :

" صديقي الغالي : أرجو أن تأخذَ هذا الظرفَ و تقرأه جيداً و أنتَ تستمعُ إلى حسن الشريف ، ربما تجدُ فيه إجابةً عن سؤالك لي كيف أمضي أوقاتي وحيداً في هذه القرية التي رحلَ عنها أغلبُ سكانِها إلى المدينة ، و باعتبارك تجري تحقيقاً صحفياً ميدانياً عن الصيد كما فهمتُ من حديثنا ، إليك هذه الحالة النادرة من الصيد التي وقعتُ فيها ، فربما تجدُ فيما كتبتُ موضوعاً يستحقُّ الاهتمامَ و الإضاءةَ عليه ، هذا رقمُ هاتفي لنتواصلَ بشكلٍ دائمٍ .

لك كل التقدير و الحب من صديقك (ف)

حملتُ الظرفَ بيدي ، أغلقتُ بابَ المنزل و توجَّهتُ إلى السيارة ، عرَّجتُ على المدرسةِ لأودِّعَ صديقي فليس من اللائقِ مغادرةُ القريةِ دونَ وداعِه ، ثم انطلقتُ باتجاهِ العاصمةِ حيث عملي و إقامتي .

****

بالتأكيد ليس عندي أيُّ مادةٍ مسجَّلةٍ للمطربِ الشعبيِّ حسن الشريف ، لجأتُ إلى اليوتيوب ، و من حُسنِ الحظِّ هناكَ مَن يهتمُّ به و قد أنزلَ على هذا الموقع عدةَ حفلاتٍ تعودُ إلى سبعيناتِ القرنِ العشرين أو أقدم ، حمَّلتُ حفلةً منها و بدأتُ أسمعُها كخلفيةٍ و أنا أقرأُ ما كتبَ صديقي (ف) في تلك الأوراق :

(تباً لك يا ابنَ لنكك ، لقد اصطدتَني بسِنَّارةِ غموضِكَ ، لقد أدخلتَني في ورطةٍ لم أظن يوماً أنَّني سأدخلُ في مثلِها أبداً ، و لكنْ كما يُقال سبقَ السيفُ العذل ، و وقعَ ما وقعَ . كنتُ أقرأ في كتابٍ أظنُّ اسمَه (ثلاثية الحلم القرمطي) لكاتبٍ لا أتذكَّرُ اسمَه ، و ليس ذلك مهماً ، وردَ فيه ذكرٌ لهذا الشاعرِ المغمورِ المُمتعِضِ من كلِّ شيء – ربما تجمَعُنا هذه الصفة - المعارضِ بالفطرة لكلِّ الخلفاءِ و الولاة ، لم تذكُرْه كتبُ الأدبِ كثيراً لما في شعره من إقذاعٍ و ابتذالٍ ، خُذْ مثلاً قولَه هذا :

لُعِنتُمْ جميعاً من وجوهٍ بليدةٍ تكنَّفُهم جهلٌ ولؤمٌ فأفرطا

و إنَّ زماناً أنتم رؤساؤه لأهلٌ لأن يُخرا عليه و يُضرطا

رغم كلِّ قراءاتي الواسعةِ في الأدبِ و التراثِ الأدبي لم أسمعْ باسمِ هذا الشاعر ، و هذا ما ولَّد لديَّ حافزاً للبحثِ عن معلوماتٍ عنه ، لا بلْ فكَّرتُ فعلاً بتحقيقِ كتابٍ عن هذه الشخصيةِ المغمورةِ في التاريخِ الأدبيِّ ، و قلتُ لنفسي هي فرصةٌ لي للدخولِ في مجالِ تحقيقِ الكتب ، و أيضاً لتسليطِ الضوءِ على شخصيةٍ مغمورةٍ لابدَّ أنَّها كانتْ محارَبةً أثناءَ حياتِها ، و لعلَّ في ذلك رفعاً للظُّلمِ و الغُبنِ عنها ، و لو بعدَ ألفِ عام ، و هكذا بدأتُ بالبحثِ و التنقيبِ في بطونِ الكتب ، قرأتُ كلَّ الكتبِ التي تُعنى بالأدبِ و بغيرِ الأدب : الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، العُمدة لابن رشيق القيرواني ، الكامل في التاريخ لابن الأثير ، يتيمة الدهر للثعالبي ، الكامل في اللغة و الأدب للمبرِّد ، الأمالي لأبي علي القالي ، أدب الكاتب لابن قتيبة الدينَوَري ، العقد الفريد لابن عبد ربه ، وفيات الأعيان لابن خلكان ، معجم الأدباء لياقوت الحموي .... و غيرَها الكثيرَ الكثير ، و لكنْ عبثاً ، لم أجدْ عن هذا الشاعرِ ما يُثلجُ الصدرَ و يُيَسِّرُ الأمرَ ، سوى سطرٍ أو سطرين ، و في حالِ كنتُ محظوظاً وجدتُ فقرةً من خمسةٍ أو ستةِ أسطرٍ ، يعني بالمختصرِ المفيد لم أجدْ مادةً تستحقُ الاعتمادَ عليها لتحقيقِ كتابٍ ، و الكثيرُ مما وردَ في بعضِ الكتبِ منقولٌ عن سابقِه أيْ ليس فيه إضافةٌ جديدةٌ و مفيدةٌ ، مثلاً هذه الفقرةُ هي أطولُ ما ذُكِرَ عنه :

(ابن لنكك البصري (ت 360 هـ / 970 م) هو أبو الحسن محمد بن محمد بن جعفر البصري ، المعروف بابن لنكك. كلمة لنك أو لنكي كلمة فارسية تعني «الأعرج» ، و لنكك هي تصغير كلمة لنك . نشأ في البصرة وقدِمَ إلى بغداد لطلبِ العلم. توفي

بين سنتي 360 هـ و 362 هـ. هو أديبٌ و نحويٌّ و شاعرٌ من آثاره: رسالة «في فضل الورد على النسرين» ، له (ديوان شعر) اطلع عليه الثعالبي وأورد منه مختارات، ورآه الصاحب بن عباد وقرظه ، كان معاصراً للمتنبي وهجاه ، و جمع ديوان الخبز أرزي) .

هذا كلُّ ما وردَ عنه و تناقلتْه كتبُ الأدبِ ، لقد ذكروا سنةَ وفاتِه و لم يعرفْ أحدٌ سنةَ ولادتِه، و لم يذكروا هل كان معمَّراً و بلغَ من العمرِ عتيَّاً أم أنَّه ماتَ مبكراً ؟ هل تزوَّجَ أم لم يتزوَّجْ ؟ و إذا تزوجَ هل أنجبَ أبناءً أم لا ؟ و لقبُ أبي الحسن هل كان حقيقياً أيْ له ولدٌ يُدعى حسناً و ما مصيرُه ؟ أم هو لقبٌ من بابِ الاعتيادِ على مناداةِ أيِّ رجلٍ أو شابٍّ بأبي فلان حتى لو كان عازباً أو متزوِّجاً و لم يُنجبْ ، كلُّ هذه الأسئلةِ و سواها صارتْ وسواساً خنَّاساً يوسوسُ في نفسي و يؤرِّقني ، لقد تغلغلتْ لوثةُ هذا الابن لنكك في نفسي ، و تملَّكتْ هواجسي ، و عندما لم أجدْ إجاباتٍ عليها ، برزتْ في ذهني أسئلةٌ أخرى أشدُّ و أدهى ، صرتُ أتساءلُ لماذا ظلَّ خاملَ الذِّكرِ بعيداً عن مجالسِ الولاةِ و الأمراء ؟ و ما سببُ خصومتِه مع المتنبي ؟ و هو القائلُ فيه :

متنبيكـــم ابـن سقـاء كـوفا ... ن و يوحى من الكنيف إليه
كان مِنْ فِيهِ يسلحُ الشعرَ حتى ... سلحت فقحةُ الزمانِ عليـــه

و هلْ لعرجِه و علتِه الجسديةِ دورٌ في عدمِ قبولِه من الولاةِ و الخلفاءِ ليكونَ نديماً لهم في مجالسِهم ؟ و لكنْ هناك مَنْ كان أشدَّ منه دمامةً و قبحاً و صار عَلَماً من أعلامِ الأدبِ منهم مثلا ابنُ الرومي ، الجاحظ ، بشارُ بنُ برد الأعمى ، إذنْ لماذا ابتعدتْ الشهرةُ عن ابنِ لنكك ؟ صرتُ أبحثُ و أتقصَّى و أطالعُ الكتبَ و المراجعَ لعلِّي أجدُ سبباً مقنعاً و مبرِّراً مقبولاً ، و لكنْ عبثاً ما وجدتُ غيرَ ما ذكَرتُ قبلَ قليل ، و تساءلتُ تُرى هل كان لميولِه السياسيةِ نحوَ القرامطة و حركتِهم المتمرِّدةِ دورٌ في ذلك ؟ لأنَّ الناسَ عموماً بسببِ تملُّقِها و تزلُّفِها للسُّلطانِ و أعوانِه تبتعدُ عن كلِّ ما لا يُرضيهِ ، عمَلاً بالمقولةِ المعروفة : ابتعدْ عن الشَّرِّ و غنِّ له . فهل كان الاقترابُ من هذا الأعرج شرّاً و سبباً في خلقِ المتاعبِ و التضييقِ من قِبلِ السلطاتِ ؟ ربما ... كلُّ شيءٍ محتمَلٌ .

و ما إن انتهيتُ من لوثةِ البحثِ عن سيرةِ ابن لنكك و أسبابِ عدمِ شهرتِه حتَّى دخلتُ في لعنةٍ أخرى و هي البحثُ في شعرِ المتنبي عن ردٍّ على هجاءِ ابنِ لنكك الذي بادرَ إليه ، و قلَّل من قيمتِه بأنَّه ابنُ سقَّاءٍ في الكوفة ، و أنا في غمرةِ بحثي وقعَتْ بين يديَّ روايةٌ مُتخيَّلَةٌ للكاتبِ المصريِّ عليِّ الجارم عنوانُها (خاتمة

المطاف) عن حياةِ المتنبي و هروبِه من مصر و قدومِه إلى الكوفة ثم إلى بغداد ، و يرِدُ فيها أنَّ صديقاً له يُدعى ابنَ حمزة نصحَه قائلاً :

ـ أحذِّركَ من ابنِ الحجَّاج وابنِ سكرة وابنِ لنكك والحاتمي، احذرْ هؤلاء يا أبا الطيِّب وتجنَّبْ الاشتباكَ معهم، وإذا دُفِعتَ إلى لقائِهم فجامِلْهُم وتلطَّفْ.

بعدَ طولِ بحثٍ و تقصٍ بدا لي أنَّ غرورَ المتنبي بنفسِه و بشعرِه جعلَه لا يتفضَّلُ حتى بالردِّ عليهم حتى لا يُشهرَهم و يخلِّدَهم بشعرِه ، و قد نصحَه صديقُه ابنُ حمزة ألا يهجوَ إلا الأمراءَ و الملوكَ ، إذا هجا ، و لا مكانَ لذكرِ أسماءِ هؤلاءِ الصغارِ في شعرِه ، و لهذا لم يرد عليهم بالاسم ، و إنَّما قالَ يهجو طائفةً من الشعراءِ الذين كانوا يحسدونه على المكانةِ التي وصلَ إليها :

أَفي كُلِّ يَومٍ تَحتَ ضِبني شُوَيعِرٌ ضَعيفٌ يُقاويني قَصيرٌ يُطاوِلُ

لِساني بِنُطقي صامِتٌ عَنهُ عادِلٌ وَقَلبي بِصَمتي ضاحِكٌ مِنهُ هازِلُ

لقد أمضيتُ عدةَ أشهرٍ و أنا في بحثي و أرَقي هذا دونَ أنْ أجدَ ما يُشبعُ فضولي في التعرُّفِ بعمقٍ إلى هذا الشاعر ، إلى أنْ تعِبتُ و مللتُ ، و تركتُ الموضوعَ برمتِه إلى النسيان .

ذاتَ ليلةٍ و أنا أقرأُ في مخطوطٍ من جملةِ مخطوطاتٍ ورِثتُها عن أبي وجدتُ ذِكراً عارضاً لهذا الرجلِ ، فقرَّرتُ البحثَ عنه في المخطوطاتِ و الكتبِ غيرِ المنشورةِ التي يقتنيها بعضُ الأصدقاء ، أنا الآنَ مُتعَبٌ جداً ، تجاوزَ الوقتُ منتصفَ الليل ، في الأيامِ القليلةِ القادمة سأبدأ) . **انتهى النص**

وضعتُ الأوراقَ جانباً و رحتُ في تأملٍ عميقٍ ، غناءُ حسن الشريف أعادَ إلى ذاكرتي مشهداً كنتُ قد نسيتُه ، كان أبي عندما يغتمُّ و تسودُّ الدنيا في عينيه بسببِ ظروفِ الحياةِ الصعبةِ يضعُ شريطَ كاسيت لهذا المطرب و يسرحُ في ذكرياتِ طفولتِه البعيدةِ في قريةٍ نشأ فيها على أطرافِ البادية ، و كثيراً ما كان يحنُّ إليها ، لا بل كان أحياناً يذرفُ الدمعَ خِفيةً تأثُّراً بصوتِ الربابةِ الحزين الذي يستحضرُ تلك الذكرياتِ البعيدةَ ، يبدو أن صديقي (ف) كان ذكياً جداً حين طلبَ مني أن أستمعَ لهذا المطربِ و أنا أقرأ ما كَتبَ ، فقد خدَّرني صوتُه و أنهضَ فيَّ كلَّ الحزن المتراكمِ في تاريخِ البشرية ، أوقفتُ الغناءَ حتى لا أبقى تحتَ وطأتِه ، توجَّهتُ إلى المغسلة ، غسلتُ وجهي و كأنَّني أغسلُ عنِّي كلَّ آثارِ ذلك الماضي البعيد و الحزين ، حضَّرتُ فنجاناً من القهوة لأبعِدَ عني خَدَرَ ذاك الغناءِ و للمزيدِ من اليقظة ، عدتُ إلى جلستي السابقة كإنسانٍ جديدٍ حتّى أتمكنَ من تقييمِ هذه الأوراقِ بأكبرِ قدرٍ من

الموضوعية ، تساءلتُ ماذا أفعلُ بها ؟ و أيُّ قيمةٍ لها ؟ و صديقي الذي لم يُنهِ نصَّه و تركه معلَّقاً لبدءِ مرحلةٍ جديدةٍ من البحثِ ، هل أرادَ توريطي بمتابعتِه بدلاً عنه ؟ لا بل قلتُ في نفسي هازئاً ماذا يعنيني ابنُ لنكك هذا أو المتنبي و حضارةُ العالم و تقنياتُه قد تجاوزتْ خيالَنا و نحنُ نضيّعُ وقتَنا في مثلِ هذه الأمور ؟ و صديقي (ف) تُرى هل ذهبتْ الوحدةُ و العزلةُ بعقلِه حتى يَشغَلَ نفسَه بهذهِ التُّرهات ؟ لقد بذلَ جهداً كبيراً و لكنْ ما فائدتُه ؟ مَنْ يهتم به ؟ لقد بدَّدَ وقتَه باحثاً في بطونِ الكتبِ للحصولِ على معلومةٍ أو فكرةٍ أو ربما عبثاً دونَ الحصولِ على أيِّ شيء ؟

تساؤلاتٌ كثيرةٌ وردتْ في ذهني ، لم أعلمْ كيف أتصرَّفُ بهذه الأوراقِ الجاثمةِ أمامي ، هل أشعِلُ النارَ بها لتجعلَها رماداً ؟ أم أمزِّقُها ؟ أم ألقي بها من نافذتي لتتطايرَ في الريح ؟ أم أعيدُها إلى الظرفِ و أعيدُ الظرفَ إلى مكانِه في زاويةِ النسيانِ تلك ليصبحَ نسياً منسيًّا ؟ أم أتابعُ البحثَ من حيث توقَّفَ صديقي ؟

و أنا في غمرة تساؤلاتي تذكَّرتُ أنَّ صديقي تركَ لي رقمَ هاتفِه للتواصُلِ معَه على ورقةٍ بيضاءَ تركَها فوقَ الظرف ، تُرى أين هي ؟ بدأتُ بالبحثِ عنها ، أمضيتُ أكثرَ من ربعِ ساعةٍ في البحثِ و لكنْ عبثاً ، عدتُ إلى جلستي السابقة ، أعدتُ الاستماعَ إلى صوتِ حسن الشريف ، أفكارٌ و تساؤلاتٌ كثيرةٌ بدأتْ تراوِدُني ، لقد فتحَ صديقي (ف) نفقاً مظلماً أمامي شعرتُ أنَّ من واجبي إضاءتَهُ ، سأبدأُ البحثَ عن سيرةِ صاحبِ هذا الصوت ، ليكونَ موضوعاً لمقالةٍ صحفيةٍ أو لكتيِّبٍ يسلِّطُ الضوءَ على نماذجَ من الغناءِ الشعبي ، شعرتُ بالإعياءِ و التعبِ ، ذهني مكدودٌ و نفسي قلقةٌ ، أنا الآنَ مضطربُ الأفكارِ ، لستُ قادراً على تحديدِ ما أريدُ ، و لا أعلمُ ماذا أفعلُ ، لكنْ ما أعلمُهُ جيداً أنَّ صديقي (ف) استطاعَ أن ينقلَ إليَّ تلك الدودةَ التي كانت تنخرُ في نفسِه ، و تؤرِّقُ أيامَهُ و لياليهِ .

دمعة في موسكو

عندما لمحَ تمثالَ لينين المنتصبَ أمامَ فندقِ روديسَّان في قلبِ العاصمةِ الروسيةِ موسكو ، لمحْتُ دمعةً تَبرقُ في عينيه للمرةِ الثانية ، طلبَ مني أن نتوجَّه إليه فوراً لالتقاطِ صورةٍ تذكاريَّةٍ قبلَ أن يحينَ موعدُ انطلاقِ العبَّارةِ في نهرِ موسكو بجولةٍ سياحيةٍ و تعريفيةٍ بمعالمِ المدينة ، تمثالٌ ضخمٌ منحوتٌ من الحجرِ البازلتيِّ الأسود يبدو فيه زعيمُ الثورةِ البلشفيةِ متأهِّباً للانطلاقِ و متقدِماً الجماهير ، تأمَّلَ التمثالَ مليَّاً و تمعَّن في تفاصيلِه و ملامحِه الحجريَّةِ التي تدلُّ على براعةِ الفنَّان الذي نحتَهُ ، وقفَ بِظِلِّه و قالَ لي :

ـ الآنَ التقطْ لي صورةً .

أراد أن ألتقطَ له صوراً من كلِّ جوانبِ التمثال ، كان كمنْ يريدُ أن يخلِّد ذكرى له مع قريبٍ أو صديقٍ حميمٍ ، و الدمعةُ التي برقتْ على عينَيه مازالتْ عالقةً تلمعُ في كلِّ صورةٍ التقطتُها له ، عدنا إلى المرفأ الصغير قرب فندق روديسَّان حيث تتوقَّفُ و تنطلقُ جُملةٌ من العبَّاراتِ – المراكبِ الفاخرةِ حاملةً السُّيَّاحَ و أهلَ المدينة في جولةٍ ترفيهيةٍ بنهر موسكو تستغرقُ ساعتين من الزمن ، أدركنا العبَّارةَ قبل انطلاقها بدقائقَ قليلةٍ ، انتقينا طاولةً في مقدَّمةِ الصالةِ الزجاجيةِ الأنيقة لنرى منها المناظر و معالمَ المدينةِ حول ضفتَي النهر ، صالةٌ في غايةِ الترتيبِ و الأناقةِ مصمَّمةٌ كمطعمٍ و كافتيريا تقدِّم للراكبِ كلَّ ما يشتهي من طعامٍ أو شرابٍ بينما هي تتهادى ببطءٍ في مياهِ النهرِ الهادئة كهدوءِ صديقي بعدَ التقاط الصور .

كانتْ لهفةُ صديقي حين رأى تمثالَ لينين تفوقُ اللهفةَ التي شعرَ بها عندما رأى بالأمس تمثالَ المفكر كارل ماركس منتصِباً برزانةٍ و رصانةٍ في الساحةِ الواقعة بين مسرحِ البوليشوي من جهة ، و مبنى الكريملين و السَّاحةِ الحمراء من جهةٍ أخرى ، المشاعرُ الفيَّاضةُ و الأحاسيسُ الغامرةُ انبعثتْ من قلبِ صديقي مع بريقٍ في العينين لدمعتين حارقتين معلَّقتين يكبِتُهما حتى لا تنفجرَ مشاعرُه و معها قصَّةٌ ما لم يبُحْ لي بها بعد ، ربما و نحن نمخرُ مياهَ النهر على مَهَلٍ يفتحُ لي نهرَه الداخليَّ و يحكي لي القصَّةَ المخفيَّةَ وراءَ هذه اللهفة ، و تلك الدمعةِ المعلَّقةِ على أهدابِهِ .

اكتمل عددُ الرُّكَّابِ ، تهادتْ العبَّارةُ مختالةً في سيرِها لتتيحَ لنا التَّمتُّعَ الهادئَ بما يحيطُ بنا كمَنْ يرتشفُ قهوتَه على مهَلٍ ، طلبَ زجاجةَ فودكا مع عصيرِ الكريفون و بعضِ الموالحِ و الأطعمةِ الخفيفة لنتسلَّى بها في رحلتِنا النهريَّةِ هذه ، تأمَّلنا المناظرَ و الجمالَ على ضفتَي النهرِ بصمت ، و كما يُقال : الصمتُ في كنفِ الجمالِ جمالُ .

لأنَّه يُتيحُ لنا التلذُّذَ بكلِّ تفصيلٍ و مشهدٍ نمرُّ قربَه ، بعضُ الرُّكَّابِ اعتلى سطحَ العبَّارةِ ليتمكنَ من الرؤيةِ الأوسع ، و ليستمتعَ بالهواءِ الباردِ ينفحُ وجهَه و يُنعشُ رئتيه ، اقترحتُ على صديقي أن نصعدَ إلى السطحِ كالآخرين ، لكنَّه فضَّلَ البقاءَ في الصَّالةِ الدافئةِ و التَّأمُّلَ من خلفِ الزُّجاجِ ، شعرتُ أنَّهُ يريدُ البقاءَ وحيداً ، فتركتُه و صعدتُ إلى السطحِ ، قاصداً تركَهُ ليخلوَ إلى نفسِه و أفكارِه و هواجسِه .

بقيتُ حوالي عشرِ دقائق على سطحِ العبَّارة ، و حين شعرتُ بالبرد يتغلغل في جسدي نزلتُ إلى الصالةِ فرأيتُ صديقي على جلسته السابقة سارحاً مع أفكاره و قد أتى على نصف زجاجة الفودكا ، انتبه إلى حضوري فعدَّل جلسته ، شعرتُ بالحرج لأنني كسرتُ صمتَه و وحدتَه ، فلم أعرفْ بما أبدأُ الحديثَ معه ، لذلك سألتُه عن تلك اللَّمعةِ في عينيه حين التقطتُ له صورةً أمامَ تمثالِ لينين ، تُرى هل هي دمعةٌ أم لمعةُ نور ؟ فقال صاحبي :

ـ أنتَ بسؤالِكَ هذا فتحتَ الجرحَ الذي في قلبي ، و الذي لم أبُحْ به لك ، إنها سيلٌ من الدموع تمَّ اختصارُه بهذه الدمعةِ الوحيدةِ المعلَّقةِ بين جفنيَّ ، إنَّها قصةُ حياةٍ مضتْ لشخصٍ عزيزٍ عليَّ جداً رحلَ عن عالمِنا منذ سنوات ، و الآن تذكَّرتُه بمرارةٍ و حزنٍ و ألمٍ ، هذا الصديقُ لم يزُرْ موسكو أبداً ، لكنَّ حياتَه كلَّها كانت معلَّقةً بها ، كان شيوعياً مُزمِناً عانى و تعذَّب و دخلَ السجن و عاشَ منبوذاً من جيرانِهِ و معارفِه بسببِ أفكارِه تلك ، لكنه بقي ثابتاً عليها ، أنتَ تعلمُ أنَّ هذه المدينة التي نجوبُ نهرَها الآن ، و نتأمَّلُ ما فيها من مبانٍ و معالمَ و جمالٍ كانتْ مِحَجَّةً لكلِّ شيوعيٍّ في العالم ، كانت عاصمةَ العالمِ الاشتراكي و إليها كانت ترنو قلوبُ و عقولُ كلِّ الشيوعيين في العالم ، و صديقي ذاك كان واحداً منهم ، عاشَ طوالَ حياتِه يحلمُ بالاشتراكيةِ و ببناءِ النظامِ الشيوعيِّ ، لم يكن حاصلاً على أيِّ شهادةٍ علمية ، فقط كان يُلمُّ بالقراءةِ و الكتابةِ ، استطاع أحدُ الشيوعيين في لبنان ، و كان حينها عاملاً هناك ، أن يجذبَه إلى أفكارِه و حزبِه ، فانتسبَ إليه ، و لا يَخفى عليكَ حجمُ المعاناةِ و المضايقاتِ التي تطالُ كلَّ منْ يعتنقُ هذه الأفكارَ في مجتمعاتِنا ، و قد تحمَّل كلَّ المخاطرِ و المصاعبِ و دخلَ السجنَ لسنواتٍ ، لكنَّه لم يتخلَّ عن أفكاره .

أتذكَّرُه الآنَ و صورتُه تمثلُ أمام عينيَّ حين كنتُ في مرحلةِ الدراسةِ الإعدادية ، كان يأتي إلى بيتِنا لزيارةِ أبي ، يحدِّثه عن الاشتراكيةِ و العدالةِ الاجتماعية و غيرِها من القِيَمِ التي يتميَّزُ بها النظامُ الاشتراكيُّ ، و يسترسلان في هذه الأحاديث و هما يتنقلان من شَجرةٍ إلى شُجيرةٍ في الحاكورة قربَ المنزل ، كان هذا الصديقُ إضافةً لعملِه في مطعمِه الشَّعبيِّ البسيطِ الذي يمتلكُه في سوقِ المدينة ، و قد أطلقَ عليه اسمَ

(مطعم النصر) تيمُّناً بأن ينتصرَ حزبُه و فكرُه في المجتمع ، كانت لديه خبرةٌ في تقليمِ و تطعيمِ الأشجار ، و كان والدي يأنسُ إليه و يطلبُ منه تطعيمَ بعضِ الأنواعِ من الأشجارِ إلى نوعٍ آخر أفضل ، فلا يتردَّدُ في تقديمِ هذه الخدمةِ لكلِّ منْ يطلبُها بكلِّ محبَّةٍ و بلا مقابلٍ ، المقابلُ الوحيدُ الذي يطمعُ به هو إيصالُ أفكارِه إلى أكبرِ قدرٍ منَ الناسِ ، و هو يشرحُها بمتعةٍ و لذَّةٍ لا تُضاهى ، كان يشعرُ أنه يناضلُ بنشرِ الأفكارِ الاشتراكيةِ بينَ صفوفِ العمال ، و ربما تسلَّلَ إلى نفسِهِ شعورٌ أنَّه يماثلُ بعملِه هذا الشَّاب (بافل فلاسوف) بطلَ روايةِ (الأم) للأديبِ الروسيِّ مكسيم غوركي أيقونةِ الأدبِ الواقعيِّ – الاشتراكيِّ في العالم .

هذه الدمعةُ التي رأيتَها يا صديقي هي دعوةٌ لروحِ هذا الصديق الذي آمنَ بهذا البلد الذي نحنُ فيهِ الآنَ و بشعبِه ، و أحبَّهُ دونَ أن يراه ، مثلما آمنَ بوطنِه و بلدتِه و أهلِهِ ، كان يردِّدُ اسمَ لينين و ماركس أكثرَ مما كان يذكرُ اسمَ والدَيه ، و الآن و أنا أطلبُ منكَ التقاطَ صورةٍ لي أمامَ التمثالين تذكَّرتُه بألمٍ و حزنٍ و حسرةٍ ، تُرى لو كان معنا الآنَ و رأى عاصمةَ الشيوعية تصبحُ كأيِّ عاصمةٍ لدولةٍ غربيةٍ رأسماليةٍ تتوزَّع فيها مكاتبُ و شركاتُ الوكالاتِ التجاريةِ للمصانعِ و المعاملِ الغربية ، بماذا سيشعرُ ؟ و ماذا سيقولُ ؟ و كيف سينظرُ إلى ماضي حياتِهِ التي مرَّتْ بكلِّ ما تعجَزُ الكلماتُ عن تخيُّلِهِ من مصاعبَ و اعتقالاتٍ و سجونٍ ، و ابتعادِ الناسِ عنه كأنه مرضٌ مُعدٍ .. فقط لأنَّه شيوعيٌّ ، هذه الدمعةُ هي دعوةُ رحمةٍ لروحِه من هنا ، من موسكو ، المدينةِ التي آمن بها ، و حَلُمَ برؤيتِها في الليالي العصيبةِ التي مرَّتْ به ، لكنَّه لم يرَها في حياتِه أبداً .

غصَّ صوتُهُ ، و تلألأتْ دمعةٌ أخرى في عينيهِ ، شعرتُ بالعجزِ عن قولِ أيِّ كلامٍ ، فالصمتُ في مثلِ هذه المواقفِ أبلغُ من أيِّ كلام ، تابعَتْ العبَّارةُ سيرَها في نهرِ موسكو ، ما زال أمامَنا ساعةٌ من الزمن حتى تعودَ إلى المرفأ الذي انطلقتْ منه ، و ما زال أمامَنا الكثيرُ من المناظرِ الجميلةِ و المعالمِ الفاتنةِ في هذه المدينة ، سنتأمَّلُها و نحن نحتسي الفودكا الممزوجة بعصيرِ الكريفون ، بينما الصمتُ يلفُّنا بجلالِهِ المهيب ، و ربَّما ترفرفُ فوقَنا روحُ ذاكَ الصَّديق الذي شعرتُ و كأنَّني صرتُ أعرفُهُ منذ أمدٍ بعيدٍ ... بعيد .

المُمْتَعِض

- هل كان ضرورياً أن يتمَّ ذلك اللقاء ؟ كان هذا السؤالُ يدورُ في ذهني مِراراً و تكراراً ، و لكنْ ما الجدوى ؟ لقد جرى ما جرى .

كنتُ أجلسُ على مقعدٍ في الحديقةِ أنظرُ إلى جبلِ قاسيون و قد جلَّله غروبُ المساء مع قليلٍ من عتمةٍ تشي بقربِ حلولِ الليل حين بادرني سائلاً :

ـ لماذا أنتَ حزين ؟

نظرتُ إليه ، كان يجلسُ على الطرفِ الآخر من المقعد ، عجوزٌ في السبعينيات من عمرِه ، تلوحُ على وجهِه ابتسامةٌ احترتُ في تصنيفِها ، هل هي طبيعيةٌ أم مصطنعةٌ ، تأمَّلتُه قليلاً مُحتاراً بين الإجابةِ على سؤالِه ، و بذلك يفتحُ معي حواراً ، و أنا الآنَ لا رغبةَ لي بالكلام مع أيِّ شخصٍ ، أو أن أتجاهلَ سؤالَه كلياً و أتابعَ تأمُّلي الفارغَ لعتمةِ الليل و هي تتمدَّدُ في السماء ، لكنَّ سِنَّهُ الكبيرَ و ابتسامتَه (المصطبيعية) و نظرتَه شبهَ المتوسِّلة جعلوني أخجلُ من أن أكسرَ بخاطرِه ، فقلتُ بشيءٍ من البرود :

ـ لا .. لستُ حزيناً و لستُ سعيداً .

قال : لكن يبدو على وجهِكَ أنَّك حزين .

قلتُ : ربما .. لكنَّني في الحقيقةِ لستُ سعيداً و لستُ حزيناً إذ لا شيءَ يستحقُّ أن تحزنَ أو تفرحَ عليه ، و لكنّني أشعرُ قليلاً بالامتعاض .

فأجابني موافقاً : نعم لا شيءَ يستحقُّ الحزنَ أو السعادةَ من أجلِه ، و استدركَ سائلاً : المُهِم البيت كيف الوضعُ بالبيت ؟

قلت : الوضعُ بالبيت كما هو الوضعُ في البلد ، هل تعتقدُ أنَّ بإمكانِ المرءِ أن يُبقيَ بيتَه سعيداً و مستقرّاً في بلدٍ حزينٍ و مضطربٍ ؟

هنا انحسرتْ الابتسامةُ الباهتةُ عن وجهِه ، لتَظهرَ التجاعيدُ التعيسةُ التي رسمَتْها السنون و الانكساراتُ و الأحزانُ ، و التي كان يجهدُ لتغطيتِها بابتسامةٍ سطحيةٍ ، و غابَ البريقُ من عينيه و قال منكسراً :

ـ نعم لا بدَّ للوضعِ العام أن ينعكسَ على كلِّ بيت ، هذا عينُ الصواب .

اقتربَ مني تاركاً طرفَ المقعدِ لزوجين يبحثان بأنظارِهما عن مكانٍ يجلسان عليه في هذه الحديقةِ البائسةِ في وسطِ المدينةِ الغارقةِ بفضلاتِ روَّادها من الأكياس و بقايا الأطعمةِ و غيرِها . ثم قال :

ـ إسمَعْ .. عمري خمسة و ستون عاماً تركتُ الآنَ زوجتي الكفيفةَ منذُ ثمانية عشر عاماً في منزلي القريب من هذه الحديقة ، خرجتُ أريدُ أن أتنفَّسَ ، أن أتكلَّمَ مع الناس ، أن أرى الناسَ و الشوارعَ و السماء ، لقد ضِقتُ ذرعاً بحياتي معها ، ولدي الوحيدُ سافرَ إلى ألمانيا مع زوجتِه و أولادِه ، ابنتاي تعيشان من زوجيهما في ضواحي المدينة مشغولتان بشؤونِ عائلتيهما ، اليوم رجوتُ ابنتي أن تأتيَ لتحلَّ مكاني و تساعدَ أمَّها الكفيفة كي أخرجَ قليلاً من البيت ، منذ أشهرٍ عديدةٍ لم أخرجْ ، أساعدُ زوجتي في كلِّ شؤونها ، صغيرةٍ و كبيرةٍ ، أنتَ لا تعلمُ معنى أن تكونَ الزوجةُ كفيفةً في بيتٍ موحشٍ مع زوجِها فقط .

ـ كان الله في عونِكَ ، حقاً هو وضعٌ صعبٌ .

شعرتُ الآنَ بالتعاطفِ مع هذا الرجل الذي قدَّرتُ عمرَه في البداية بأكثرَ بعشرِ سنواتٍ من عمرِه الحقيقي ، لا بلْ شعرتُ بالندمِ لأنَّني محوتُ الابتسامةَ عن وجهِه ، و لو كانت سطحيةً و مصطنعةً ، و أطفأتُ البريقَ في عينيه و لو كان وهماً ، فهو الآنَ بمجردِ خروجِه من المنزل يشعرُ بسعادةٍ غامرةٍ و كبيرةٍ ، سحبتُها أنا ببرودتي و بؤسي الروحيِّ و الجسديِّ و انعدامِ إحساسي بالآخر و شعوري المزمنِ بالامتعاضِ الفطريِّ ، نسلتُها من كلِّ عِرقٍ و خليةٍ في جسدِه ، و تركتُه قرمةً بشريةً جافةً لا رُواءَ فيها ، لا بل فتحتُ عليه جراحَه التي خرجَ من بيتِه بعد شهورٍ من الوحدةِ و العزلةِ ليرمِّمَها و يشفيها ، أو لينسى ألمَها و لو لساعاتٍ قليلةٍ ، فالعودةُ إلى البيت بانتظارِه ، و زوجتُه الكفيفةُ تحتاج إلى مساعداتٍ أعجَزُ عن تخيُّلِها ، حاولتُ تداركَ فداحةِ ما فعلتُ و قلتُ له :

ـ عفواً أنا آسفٌ لأنني أيقظتُ جراحَك ، فأنتَ تريدُ أن تروِّحَ عن نفسِك قليلاً ، كان الله في عونِك ، على كلِّ حال عملُك لن يضيعَ و ثوابُك عند ربِّ العالمين سيكون كبيراً .

تابع قائلاً كأنَّه لم يسمَعْني :

ـ أنا تاجر ، أو بالأصح كنتُ تاجراً كان وضعي جيداً جداً أملك منزلاً كبيراً في وسطِ المدينة و محلاً تجارياً قريباً من هذه الحديقة في السبع بحرات جعلتُه وكالةً لبيع نوعٍ فاخرٍ من المدافئ (أولمر) إذا كنتَ تذكرُ هذه الماركة ؟

قلتُ مؤكِّداً : ـ نعم .. نعم إنها ماركةٌ مشهورةٌ كان يقتنيها الأثرياءُ في صالوناتِهم الفخمة و يتفاخرون باقتنائها .

تابع : صحيح كانت موضعَ تفاخرٍ ، المهم نسجتُ من خلال محلي التجاري علاقاتٍ مع أناسٍ كبارٍ أغنياء و مسؤولين و صناعيين .. الخ . كنتُ رجلاً (واصلاً) كما يقولون ، أيُّ مشكلةٍ تواجهني أحلُّها من خلالِ علاقاتي ، لكنْ الآن ذهبَ كلُّ شيء .. كلُّ شيءٍ ، ابني الوحيدُ سافر ، ابنتاي مع زوجيهما ، و أنا أعاني مع زوجتي الكفيفة .

كنتُ صامتاً أتأمَّلُ هذا الرجلَ الذي ألتقيه الآنَ لأوَّلِ مرةٍ في حياتي ، و ربما لن نلتقيَ مرةً ثانيةً بعد أن أخرُجَ من الحديقة ، أستمعُ إليه يبوحُ لي بمكنوناتِ نفسِه و خصوصياتِه ، و كأنَّني صديقٌ حميمٌ يعرفه منذ زمنٍ طويلٍ . قال :

ـ هل تعلم يا أستاذ لقد دفعتُ مالاً كثيراً ... كثيراً جداً كي أعالجَ زوجتي ، سفَّرتُها إلى روسيا مرتين للعلاج ، و لكنْ لا فائدة ، و أنا لستُ نادماً على ذلك ، و مستعدٌّ أن أدفعَ كلَّ ما أملكُ حتى تستعيدَ بصرَها ، لكنَّ الأطباءَ أكَّدوا استحالةَ ذلك ، زوجتي امرأةٌ صالحةٌ تعِبَتْ معي كثيراً ، و تعِبنا سويّةً حتى نؤمِّنَ وضعاً مالياً مريحاً ، لا بل ممتازاً لنا و لأولادِنا ، و لكنْ هكذا هي الحياة ، لقد عُرِضَ عليَّ الزواجُ كثيراً أكثرَ مما تتخيَّل ، نساءٌ جميلاتٌ يصغرنني بالسِّنِّ ، شاباتٌ لكنني كنتُ أرفضُ بشدَّة ، لم أستطعْ أنْ أتخيَّلَ نفسي و قد تركتُ زوجتي وحيدةً في البيت ، و خرجتُ مع امرأةٍ أخرى نتفسَّحُ و نلهو ، لا يمكنُ أنْ أرضى بذلك ، أنا إنسانٌ مؤمنٌ بالله ، و مؤمنٌ بنصيبي ، لذلك بقيتُ معها أساعدُها و لستُ نادماً .

كان يحكي لي مأساته و كأنها تخصُّ شخصاً آخر ، يبدو أنَّه اعتادَ عليها ، و يبدو أنَّ جلستَنا في هذه الحديقةِ ، و الساعةُ قد تجاوزت التاسعة ليلاً ، و النسماتُ البارداتُ قد أنعشتْ نفسَه للحديثِ و الذكريات ، و أنا كنتُ مستمعاً ، و لكنْ بعدَ أنْ عرفتُ مأساتَه أصبحتُ مستمِعاً متعاطفاً ، و لستُ مستمِعاً بامتعاضٍ كما كنتُ في البداية ، باعتبارِ الشعورِ بالامتعاضِ باتَ سِمةً و عَلامةً مميِّزةً لي ، يعني ماركة مسجلة باسمي أينما ذهبتُ و حيثما حَللتُ . عاد العجوزُ إلى حديثه قاطعاً هواجسي :

ـ ليتني لم أعُدْ من السفر ، ليتني بقيتُ في عرعر في السعودية ، هناك عشتُ حوالي عشرِ سنواتٍ مع زوجتي التي حصَلتْ على عقدِ عملٍ كمعلمة ، و أنا مرافقٌ لها كمُحْرَمٍ كما تقتضي قوانينُ ذاكَ البلد ، هناك عملتُ في محلٍّ تجاريٍّ

أمَّن لي دخلاً ممتازاً ، كان ذلك في سبعيناتِ حتى منتصفِ ثمانيناتِ القرن الماضي .. آه على تلك الأيام كم كانتْ جميلةً و مريحةً تُرى هل تعود ؟ هل يمكنُ أن تعود ؟

لم أدرِ هل كان يسألني أم أنَّه يحلمُ و يناجي طيفاً يتراءى له ، أجبتُ :

ـ لا شيءَ يعودُ أبداً .. لن تعود ، و لكن دعْنا نرجو أن تأتِيَنا أيامٌ سعيدةٌ في قادمِ السنين .

ـ نعم كما قلتَ لا شيءَ يعود ، لقد مضى العمر و لم يبقَ منه إلا القليل ، لم نكن نتوقَّعُ هذه النهايةَ أبداً ، لم نكنْ نتخيَّلُ أن يجريَ في بلدِنا ما جرى ، يا أستاذ هل تعتقد أنَّ العمرَ سيُسعفني لأعيشَ تلك الأيامَ القادمة ، لأرى البلدَ يعودُ كما كان ؟

أجبتُه باسماً : هذا ما لا أستطيعُ أن أجيبَكَ عليه ، فالأعمارُ بيدِ الله ، ربما ، و لكنْ ما أستطيعُ أنْ أفعلَه الآنَ هو أنْ أسالَكَ ماذا تُحبُّ أنْ تشربَ .. قهوة .. شاي .. زهورات .. ما رأيُك ؟ هذا بمتناولي الآن .

ابتسم و قال : ما رأيُك بالقهوة ؟

قلتُ : جيدة جداً الآن في هذا الوقت .. دقائقُ و أُحضِرُها .

ذهبتُ إلى بائعٍ ركنَ عربتَه في طرفِ الحديقة يبيعُ المشروباتِ الساخنةَ و الباردة لروَّادِ الحديقة ، و سؤالٌ يتردَّد في نفسي : هل كان ضرورياً هذا اللقاء ؟ هل كنتُ بحاجةٍ إلى مزيدٍ من البؤس و الامتعاض ؟ حملتُ فنجانَي القهوة و عدتُ إلى صديقي الجديد .. المقعدُ فارغ .. نظرتُ حولي .. الناسُ مشغولون ببعضهم و أنا وحدي أحملُ فنجانَي القهوة أنتظرُ مَنْ يشاركني شربَ الفنجانِ الآخر .

الكرسي

كنتُ أعبرُ بسيّارتي الطريقَ الممتلئَ بالحُفَرِ و المطبات ، أسيرُ ببُطءٍ و أتأمّلُ الدّمارَ و الخرابَ على جانِبَي الطريق ، بناياتٌ مهدَّمةٌ ، أخرى سقطَ نصفُها و النصفُ الآخرُ يقفُ مائلاً على وشكِ السقوط ، جدرانٌ مليئةٌ بالثقوب ، فُسحاتٌ من الأرضِ فيها بقايا مزروعاتٍ و أشجارٌ و عيدانُ قصبٍ اعتلاها الغبارُ و الذبولُ ، مازالت واقفةً بانكسارٍ و آسىً يُشبه تماماً الأسى و الحزنَ الذي ملأ قلبي ، و المرارةَ التي غصَّ بها حلقي .

أتذكَّرُ الآنَ و أنا أتقافزُ بسيارتي بينَ حُفرةٍ و مطبٍّ و أرضٍ ترابيةٍ و بقعةٍ من الطريق مازالتْ مغطاةً بالإسفلت ، آخرَ مرّةٍ جئتُ فيها إلى هذه المنطقة كانتْ في عامِ 2005 أيْ قبلَ أربعةَ عشرَ عاماً من الآن ، كانَ كلُّ شيءٍ على ما يُرام ، الطريقُ مزدحمٌ بالسياراتِ و باصاتِ النقل ، حركةٌ عُمرانيةٌ نشيطةٌ تلتهمُ كلَّ المِساحاتِ الخضراءَ لتنتصبَ مكانَها بناياتٌ سكنيةٌ فاخرةٌ تُباعُ شققُها على المخطَّطِ قبلَ الشُّروعِ بالبناءِ ، حركةٌ تجاريةٌ مزدهرةٌ جداً ، الثراءُ و الرفاهيةُ هي عنوانٌ لكلِّ شيءٍ في هذه المنطقة ، كان معروفاً لكلِّ الناسِ أنَّ مَنْ يحتاجُ لأيِّ قطعةِ أثاثٍ خشبيٍّ عليه أن يقصدَ هذه المنطقةَ و سيجدُ فيها كلَّ ما يخطرُ و ما لا يخطرُ ببالِه من المفروشاتِ الأنيقةِ و المتينةِ و بسعرٍ معقولٍ .

أسيرُ ببطءٍ باحثاً عن شخصٍ لأسألَهُ عن المعملِ الذي أقصدُه ، فقد نسيتُ الطريقَ كما أنَّ الخرابَ و الدمارَ و التغييرَ الكبيرَ الذي طرأ على المنطقةِ جعلوني غيرَ قادرٍ على معرفةِ أيِّ شيءٍ ، وجدتُ شخصاً بائساً يجلسُ أمام بقايا محلٍّ في بنايةٍ مازال جزءٌ كبيرٌ منها سليماً ، سألتُه عن مقصدي فأشارَ إليَّ بحيويةٍ مفاجئةٍ و حماسةٍ و اندفاعٍ كمَنْ وجدَ بعدَ طولِ عزلةٍ شخصاً غريباً يتحدَّثُ إليهِ ، قائلاً : مازالَ أمامَكَ طريقٌ طويلٌ .. ابقَ سائراً إلى الأمام .

كنتُ أقصدُ معملَ البنِّي في (سقبا) لصناعةِ الكراسي من خشبِ الزان ، فقد بحثتُ في المدينةِ عن نوعٍ معيَّنٍ من الكراسي و لكنَّني لم أجدْهُ ، كنتُ أحتفظُ بصورةٍ له في الموبايل و أُرِيها لأصحابِ المحلاتِ فيقولون بحسرةٍ : إيه .. هذا النوعُ من الكراسي كنَّا نبيعُه قبلَ الحرب .. كان متوفِّراً .. الآنَ لا تُتعِبْ نفسَكَ لن تجدَ منه ، و لكنْ لا يَمنعُ ذلك مِن أن تبحثَ ، ربما تجدُ طلبَكَ .

بحثتُ في صالاتِ (الحريقة ، شارع خالد بن الوليد ، شارع بغداد ، باب مصلى) ، لم أترك مكاناً يبيعُ المفروشاتِ إلا و زرتُهُ و لكنْ عبثاً ، الكلُّ يعتذرُ ، أخيراً قِيلَ لي يوجدُ في شارعِ العمارة محلان مُختصَّان ببيعٍ و إصلاحٍ و تقشيشِ مختلفِ أنواعِ

الكراسي ربما أجدُ طلبي فيهما ، قصدتُ المحلَّين و لم أجدْ فيهما طلبي ، و لكنْ نصَحَني صاحبُ أحدِ المَحلَّين و هو مختصٌّ بتقشيشِ كراسي القَشِّ الخشبيةِ القديمةِ و كراسي الخيزران قائلاً : عليكَ أن تذهبَ إلى سقبا هناك معملُ (البنّي) هو الوحيدُ المختصُّ بصناعةِ هذا النوعِ من الكراسي ، و قد علِمتُ أنَّه عادَ للعملِ و الإنتاجِ منذُ أشهرٍ قليلةٍ بعدَ أن تمَّ تحريرُ الغوطةِ الشرقيةِ من الفوضى و المخرِّبين .

و هذا ما أقومُ بهِ الآنَ ، أقصدُ المعملَ مباشرةً .

*****

أتساءلُ أحياناً بيني و بين نفسي هل يستحقُّ هذا الكرسيُّ كلَّ هذا البحثِ و العناءِ ، و قطعَ كلِّ هذه المسافةِ للوصولِ إلى هذه المنطقةِ المدمَّرةِ للحصولِ عليه ؟ حينها أقرِّرُ نسيانَ الموضوعِ برمَّتهِ ، و أقنعُ نفسي بأنَّ ما لديَّ في المنزلِ من الكراسي يُغنيني ، خاصةً و أنَّ لديَّ أكثرَ من نوعٍ من الكراسي المعقولةِ و المريحةِ ، و لكنْ سرعانَ ما يعودُ هاجسُ اقتناءِ هذا النوعِ من الكراسي تحديداً ، يُوسوسُ في صدري و يؤرِّقني ، و مِن عاداتي السيئةِ أنني إذا فكَّرتُ بشراءِ غَرَضٍ ما فإنَّني أبقى قلقاً و متوتراً حتى أشتريه ، إضافةً إلى أنَّ هذا الكرسيَّ له في نفسي ذكرى جميلةٌ و بعيدةٌ ، كنتُ حينَها في العاشرةِ من عمري ، كانَ يوجدُ كرسيٌّ وحيدٌ في المعملِ الذي يشتغلُ به والدي ، و هو مخصّصٌ لصاحبِ المعملِ حين يحضرُ ليتابعَ شؤونَ المعملِ و حركةَ البيعِ و تأمينِ الموادِ و مراقبةِ والدي و هو يصبُّ الباطونَ المجبولَ في المكبسِ ليصنعَ منها حجارةَ الخَفَّان (البلوك) ، كنتُ حينها صغيراً أساعدُ أبي في بعضِ الأعمالِ البسيطةِ و أغتنمُ فرصةَ عدمِ وجودِ صاحبِ المعملِ لأستلقيَ على ذاك الكرسيِّ المريحِ ، أتمدَّدُ بطولي عليهِ حتى أغفو ، لذلك قلتُ في نفسي يجبُ أن أقتنيَ هذا الكرسيَّ لعلِّي أستعيدُ بعضاً من تلك اللحظاتِ و الذكرياتِ البعيدةِ و الجميلة ، هذا سببٌ ، و السببُ الآخرُ لا يقلُّ أهميةً عن الأول ، فأنا معتادٌ على القراءةِ ، بل مدمنٌ عليها و أمضي وقتاً طويلاً بالمطالعةِ ، و أشعرُ أنَّ هذا النوعَ من الكراسي سيوفِّرُ لي الراحةَ التي أتمنَّاها بجلوسي الطويلِ ، كرسيٌّ من خشبِ الزان قابلٌ للطيِّ يمكنُ تعديلُ ارتفاعِ مسندِهِ على أربعةِ مستوياتٍ ، لذلك بحثتُ عنه كثيراً و بإلحاحٍ ، و حين أخبرَني البائعُ عن اسمِ و عنوانِ المعملِ المختصِّ بصناعتِه قرَّرتُ المجيءَ إليه .

*****

مضتْ حوالي نصفِ ساعةٍ و أنا أنتقَّلُ من شارعٍ إلى شارع ، و من زقاقٍ إلى زقاق حتَّى وصلتُ إلى مدخلِ أحدِ الأزقةِ الذي يوجدُ في نهايتِه المعملُ كما أرشدني أحدُ

سكانِ المنطقة ، و كنتُ قد سألتُ الكثيرَ من الناسِ العابرين حتى وصلتُ ، مجموعةٌ من الكراسي و الصوفايات و الكنبايات غيرِ المكتمِلة معروضةٌ أمامَ المحل ، فتى يجلسُ على كرسيٍّ كالذي أبحثُ عنه يحرسُ المحلَّ بغيابِ صاحبِه ، استبشرتُ خيراً ، حضرَ ابنُ صاحبِ المعملِ و هو شابٌّ في الثلاثيناتِ من عمرِه ، أخبرتُه عن طلبي فقال : لقد وصلتَ طلبُكَ موجودٌ ، سألتُه هل يُمكنني أخذُه فوراً ؟ قال : نعمْ و لكنْ يجبُ طلاؤه بمادةِ (اللَّغَر) ، خلالَ عشرِ دقائقَ يتِمُّ الطلاءُ و يحتاجُ لخمسِ دقائق حتى يجفَّ و يصبحَ جاهزاً ، طلبَ من العاملِ أن يطليَ الكرسيَّ بمادةِ (اللَّغَر) التي تُعطي الخشبَ لمعاناً و جمالاً ، ثم جلسنا نتحدَّثُ عن المنطقةِ و ما حلَّ بها ، و ظروفِ الحياةِ فيها ، علمتُ منه أنَّه بقيَ في بيتِه رغمَ سيطرةِ المخرِّبين و انتشارِهم ، و ما فعلوهُ من فوضى و دمارٍ و انعدامِ الأمان ، قال : أينَ سأذهبُ يا أستاذ ؟ و كيف ؟ و لمن سأترُكُ بيتي ؟ لقد كانتْ أياماً سوداءَ تعجزُ الكلماتُ عن وصفِها .. لكنْ الحمدُ لله .. الآنَ رغمَ كلِّ ما تراهُ من دمارٍ و غيابٍ للخدماتِ إلا أنَّ الوضعَ أفضلُ بكثيرٍ من السابق ، أنتَ الآنَ تأمَنُ على نفسِكَ و أسرتِكَ بالحدِّ الأدنى ... و أضافَ كأنَّه يريدُ إنهاءَ الحديثِ عن الماضي و نسيانَهُ : لا يمكنُ المقارنة .

انتهى العاملُ من طلاءِ الكرسيِّ باللَّغَر ، عرَّضَه للهواءِ قليلاً حتى يجفَّ ، و صارَ بإمكاني وضعُه في صندوقِ السيارةِ ، عندئذٍ سألتُه عن الثمن فقال : و اللهِ يا أستاذ مجيؤكَ إلى هنا لا يُقدَّرُ بثمنٍ ، أنْ تقطعَ كلَّ هذه المسافةِ و تحضُرَ إلى المعملِ هنا رغمَ كلِّ هذه الظروفِ فهذا شيءٌ كبيرٌ جدَّاً في نظري ، لذلكَ سأعطيكَ إيَّاهُ بسعرٍ لم أبِعْهُ بهِ لأحدٍ قبلَكَ ، سآخذُ منكَ ثمنَ الكلفةِ فقط ، و إنْ شاءَ الله تكونُ زبوناً دائماً لنا ، لقد أثَّرتْ كلماتُه بي كثيراً ، شعرتُ أنَّ بذرةَ الخيرِ و الطيبةِ ما زالتْ حيَّةً في نفسِه رغمَ كلِّ المصاعبِ و المآسي و الكوارثِ التي مرَّتْ عليهِ ، لعنتُ حينَها كلَّ منْ كان له دورٌ في إيقاظِ الوحوشِ النائمةِ في قلوبِ الناسِ في بلدي ، لتنسيَهُم الطيبةَ و الرحمةَ التي تربُّوا عليها .

وضعتُ الكرسيَّ في صندوقِ السيَّارةِ ، أعطيتُه ثمنَه أكثرَ مما طلبَ ، نظَّمَ لي فاتورةً حتى أمرَّ على الحواجزِ دون أيِّ عراقيل ، ودَّعنا بعضَنا و كأنَّنا أصدقاءُ منذُ زمنٍ بعيدٍ .

عدتُ أتقافزُ بسيَّارتي فوقَ الحُفرِ و المطباتِ عائداً إلى منزلي في أقصى غربِ العاصمة ، و قد نَما في نفسي أملٌ بأنَّنا قادرون على نِسيانِ كلِّ ما جرى و إعادةِ بناءِ الحياةِ من جديد ، نظرتُ إلى البناياتِ المهدَّمةِ على جانِبَي الطريق ، إلى الأشجارِ المكسوَّةِ بالغبارِ و الذبولِ ، إلى الحزنِ و الأسى الممدَّدِ كتجاعيدَ قاسيةٍ على وجهِ التراب ، و انتابني شعورٌ مختلِفٌ كليّاً عن الشعورِ السابقِ الذي شعرتُ به

عندَ قدومي إلى المنطقةِ ، و ما فيهِ من حَذرٍ و توجُّسٍ و رهبةٍ ، أسرعتُ بسيّارتي أطوي الطريَق طياً و أنا أكثرُ سعادةً و أملاً .

وجوهٌ عابرة

في كلِّ يومٍ أرى عدداً كبيراً من الوجوه ، أتأمَّلها .. أُلاحِقها بنظري .. أحاولُ أن أقرأ ما خلفَ ملامحِها ، بعضها يجلس هنا على هذا الكرسي كي أرسمَه مقابل أجرٍ زهيدٍ ، وجوهٌ كثيرةٌ لا تُحصى رأيتُها و رسمتُها ، و لكنْ .. هناك وجهٌ وحيدٌ ما زال محفوظاً في ذاكرتي ، مازال ماثلاً أمام ناظريَّ ، يطاردني .. يخاتلني في كلِّ وجهٍ أراه ، يلاحقني حتى في الحلم ، و أنا ، ربما من خلال رسمي لهذه الوجوه ، أحاول التخلُّصَ منه ، أحاولُ إبعادَ طيفِه عنِّي ... و لكنْ .. عبثاً .

كنتُ أتابعُ حديثَهما و أنا جالسٌ أستريحُ بعدَ طولِ سيرٍ على مقعدي القريب منهما ، أحتسي القهوةَ من بائعٍ جوَّالٍ يبيع القهوة المُرَّة و هو يجوبُ الشوارعَ على قدميه ، ظلَّ يُلِحُّ عليَّ كي أشتريَ منه رغم أننَّي لا أحبُّ القهوة المُرَّة ، و لكن حتى أتخلَّصَ من إلحاحِه ، سمعتُ الرسامَ يبوح لذاك الشابِّ العابر بأفكاره بعد أن تعارفا إلى بعض ، في البداية طلبَ الشابُّ العابرُ من الرسَّامِ أن يلتقطَ له بعضَ الصور و هو يرسم ، فلم يمانع ، التقط عدة صور و فيلماً قصيراً له و للوحات التي رسمها و علَّقها على السور الحديدي قربَ جدار قلعة دمشق ، منها وجهٌ متخيَّلٌ للفيلسوف اليوناني أفلاطون ، وجهٌ لتشارلي شابلن ، و وجوهٌ لأشخاصٍ آخرين غير معروفين ، بعد ذلك بدأ الحديثُ بينهما .

فنانٌ في الثمانيناتِ من عمره اختار جزءاً من الرصيف ليمارسَ هوايته في رسمِ الوجوه ، و هو بذلك يوفِّرُ دخلاً مادياً معقولاً لمصاريفِ الحياة ، و يمارسُ موهبتَه الفنية من ناحيةٍ أخرى ، و شابٌّ فضوليٌّ لديه القدرةُ على التعرُّفِ إلى الآخرين بكلِّ بساطةٍ و سلاسةٍ و عفويةٍ ، و على الاندماجِ معهم في حديثٍ حميميٍّ كأصدقاءَ قدامى ، بعكسي أنا الرجلُ الخمسينيُّ الوحيدُ و المتوجِّسُ من كلِّ شيءٍ الذي يَحسُبُ لكلِّ خطوةٍ ألفَ حساب ، ها قد جعلتني المصادفةُ متلصِّصاً عليهما و متابِعاً لحديثِهما .

- الحقيقة أنا لم أدرسْ الفن ، لقد درستُ الرياضيات و عملتُ في التعليم عدة سنوات ، و لكنني لم أستطعْ الاستمرارَ ، موهبةُ الرسم خُلِقتْ معي بالفطرة ، أحببتها .. اتَّبعتُ دوراتٍ في الرسم لصقل مهاراتي ، سافرتُ كثيراً ، زرتُ الكثيرَ من المتاحفِ و العواصمِ الأوروبية و المعارضِ الفنيةِ أتأمَّلُ المنحوتاتِ و اللوحاتِ و كلَّ ما له صلةٌ بالفن ، الحدائقَ ، العماراتِ تنظيمَ الشوارع ، كلَّ شيء ، لا توجدُ عاصمةٌ أوروبيةٌ لم أزُرْها ، أقمتُ معارضَ فيها و بِعتُ عدداً من اللوحات ، و لوحاتي مقتناةٌ في الكثيرِ من البلدان ، و لكنْ عندي حنينٌ إلى هذا المكان هنا قربَ هذه الحجارةِ القديمةِ التي نَمَتْ

عليها الطحالبُ ، هنا في ظلِّ هذا السورِ الحجريِّ القديمِ للقلعة ، يبدو أنَّ مغناطيساً قوياً يشدُّني إلى هذا المكان ، منذ ربعِ قرنٍ من الزمن و بشكلٍ يوميٍّ آتي إلى هنا ، أفرشُ أدواتي للرسم ، صيفاً و شتاءً ، من العاشرةِ صباحاً حتى الرابعةِ بعدَ الظهر ، باستثناءِ الأيامِ الممطرة ، لا أخفيكَ خلال فترةِ الحربِ انقطعتُ عن المجيء ، سافرتُ خارجَ البلد ، حزنتُ كثيراً على ما جرى للبلد ، منذ عامٍ تقريباً عدتُ ، وجدتُ مكاني ينتظرني و أنا بشوقٍ إليه .

تأمَّلتُهما و هما يتحدثان و كأنَّهما صديقان حميمان ، يبدو أنَّ للعابرِ الشابِّ اهتماماً بالفنِّ و الرسم ، و هذا ما جعلهما يتصادقان بسرعةٍ عَجِبتُ لها ، الرسامُ عجوزٌ له بَشرةٌ بيضاءُ حنطيةٌ تتخلَّلها حُمرةٌ طفيفة ، التجاعيدُ تشكِّلُ هالةً من الخطوطِ المتكسِّرةِ حول عينيه ، شَعرُهُ أشيبُ طويلٌ قليلاً ، ابتسامتُه لا تفارقُ شفتيه ، ربما يتغلَّبُ بها على شظفِ الحياة و قسوتِها ، سأله الشابُّ : هل تحصِّلُ مبلغاً مالياً جيداً من عملِكَ هنا ؟ فأجاب :

- أنتَ تعلم أنَّ الناسَ فقراءُ ، أغلبُهم يمرُّ و هو يُلقي نظرةً عليَّ و على هذه الرسومات ، بعضُهم يسألني عن المبلغ الذي أتقاضاه لقاءَ رسمِ الوجهِ ، يفكِّر قليلاً ، ثم يمضي في سبيلِه ، أنا هنا ليس من أجلِ الرسم و رؤيةِ الناسِ فقط ، أنا هنا من أجلِ نفسي ، من أجلِ إرضاءِ مشاعري و هواجسي ، من أجلِ أصابعي حتى لا تتخشَّبَ ، و ألواني حتى تتمدَّدَ و تنداحَ على سطحِ الورق ، من أجلِ أن أثبتَ لنفسي أنَّني ما زلتُ حياً قادراً على الخلقِ و الإبداع .

*****

شارعُ رامبلا في مدينةِ برشلونة الأسبانية ، و هو من أهمِّ معالمِها السياحةِ يربطُ ساحةَ كاتالونيا بمركزِ المدينة ، و ينتهي بشاطئ كريستوف كولومبوس ، هناك كنتُ أفردُ لوحاتي و ألواني أمامَ المارَّة ، أمارسُ شغفي بالرسمِ ، رسمِ الوجوهِ أو أيِّ شيءٍ يخطرُ ببالي . لم أكنْ وحيداً فالكثيرُ من الفنانين من أمثالي يبسطون أدواتِ الرسم و يرسمون ، أمضيتُ هناك خمسة عشر عاماً هي أجملُ سنوات عمري ، كنتُ شاباً آنذاك في الثلاثيناتِ من عمري ، تزوجتُ فتاةً إسبانيةً و أنجبتُ منها ابناً ، حين عدتُ في بدايةِ تسعينياتِ القرن الماضي لم تأتِ معي ، بقيتْ هناك مع ابننا ، أما أنا فكما تراني صرتُ وحيداً ، رساماً متجوِّلاً ، روحاً هائمةً في عالمٍ من الوجوهِ و المناظرِ و الألوان ، أتساءلُ أحياناً بيني و بين نفسي : هل للونِ روحٌ ؟ ما هو اللون ؟ مما يتكوَّن ؟ ربما تقول عنِّي ساذجاً لأنَّني أسألُ هذه الأسئلةَ التي تظنُّ أنها بسيطة ، أو أنَّ الوحدةَ أثَّرت في عقلي ،

لكنْ لو فكَّرتَ بها قليلاً لوجدتَها صعبةً و معقَّدةً و عميقةً ، الكثيرُ من الناس يظنُّ أنه يرى الألوانَ يومياً في كلِّ ما حولَه ، لكنَّ الحقيقة أنَّنا نرى أشياءَ ملوَّنةً ، أمَّا اللونُ فهو شيءٌ آخر ؟ حالةٌ أخرى ؟ لا أدري ماذا أقول لك ، و لا تُسعفني لغتي بمفردةٍ تعبِّر عمَّا يجولُ في ذهني ، بعد أن شَكَّلَتْ هذه الأسئلةُ هاجساً مقلقاً عندي تركتُ الألوانَ ، أو بالأصح ابتعدتُ عنها ، صرتُ أستعملُ الفحمَ في أغلبِ ما أرسم ، صرتُ أرى العالمَ فقط بهذين اللونين ، الأبيض و الأسود ، و ما بينهما من ظلالٍ و تدرُّجاتٍ للَّونِ الرماديِّ ، هل يعني ذلك أنني صرتُ متشائماً ؟ يائساً ؟ متعباً ؟ كما يقول النقاد ؟ ربما .. لا أدري و لا يهمُّني الأمرُ برمتِهِ .

هنا على هذا الرصيف و أنا غارقٌ في رسوماتي ، أو في وجهٍ من الوجوه التي أرسمها ، أستحضرُ ماضيَّ ، أستعيدُ حياتي كشريطٍ من الذكريات ، من بيتنا الفقيرِ المتواضعِ في أحدِ أحياءِ حلب ، إلى مدينةِ دمشق حيث أقيمُ متنقِّلاً وحيداً ما بين غرفةٍ بالآجار في منزلٍ عربيٍّ كبيرٍ مع مستأجِرين آخرين ، إلى غرفةٍ بائسةٍ في فندقٍ متواضعٍ في ساحة المرجة ، أحاولُ أن أحكمَ عليها ، أن أقيِّمَها ، و حين يستعصي عليَّ ذلك أعودُ إلى الواقع ... إلى اللحظةِ الآن ، و أغرقُ من جديدٍ بين البياضِ و السواد ، فهما يختصران حياتي بشكلٍ حقيقيٍّ و عميقٍ أكثرَ من كلِّ اللغاتِ و الكلمات .

- ما رأيُكَ أن تجلسَ قبالتي قليلاً ؟ سأرسمُ وجهَك خلالَ عشرِ دقائق و اعتبرْ اللوحةَ هديةً و ذكرى مني لك ؟
- أشكرُكَ على اقتراحِكَ هذا ، و لكنْ ما رأيُكَ أنتَ أن ترسُمَني بعدَ أن تعودَ إلى غرفتِكَ في الفندق ، لا أريدُ صورةً فوتوغرافيةً طبقَ الأصل ، بل أريدُ لوحةً لي كما تتخيَّلُني بعدَ حديثِنا هذا .. فما رأيُكَ ؟

فكَّر قليلاً بكلامه ، تأمَّله بصمتٍ لعدةِ دقائق ، ظننتُ أنا من خلال مراقبتي لهما أنَّه يحاولُ حفظَ ملامحِ وجهِهِ في ذاكرتِه حتَّى يتمكَّنَ من استعادتِها في خلوتِه الفنية ، ثم قال له :

- مما لا أنساه يا صديقي وجهٌ فريدٌ مميزٌ ، فيه تناقضٌ كبيرٌ أدهشني و أربكني في رسمِه ، حين كنتُ أنظرُ إليه مباشرةً أرى أمامي شابَّاً نضرَ الوجهِ ، أمَّا إذا نظرتُ إليه بشكلٍ جانبيٍّ فأرى فيه تجاعيدَ تدلُّ على شيخوخةِ حاملِه ، ذاك الوجهُ لا أنساهُ أبداً مِنْ بينِ الوجوهِ الكثيرةِ التي رأيتُها ، و الآنَ أنتَ تذكِّرني به و تريدُ إرباكي ، على كلِّ حال سأرسمُ وجهَك الآنَ فوراً و أعِدُكَ أنَّني سأرسمُ لك لوحةً تكونُ فيها كما أتخيَّلُكَ .

- و أنا أيضاً أعِدُكَ أنْ أزورَكَ بينَ الحينِ و الآخر في مرسمِك اللطيفِ هذا ، و أن نجلسَ على هذا الرصيف لنتحادثَ و نحتسيَ كأساً من الشاي .

*****

احتسيت آخرَ رشفةٍ من قهوتي ، تناولتُ أشيائي عن المقعد استعداداً للمغادرة بعد أن شَهِدتُ نموَّ علاقةِ إنسانيةٍ جميلةٍ بين شخصَين من جيلين مختلفين ، كانا غريبين عن بعضِهما تماماً ، رأيتُهما و قد افترقا ، الرسامُ عادَ منهمِكاً بمتابعةِ رسوماتِه ، أما العابرُ الشابُّ فاتجه غرباً نحو شارعِ الثورة حاملاً بينَ يديه لُفافةً من الورقِ ينامُ على سطحِها رسمٌ لوجهِه باللونين الأبيض و الأسود ، مع وعدٍ معلَّقٍ قادمٍ بانتظارِ وجهٍ سيخرجُ من بينِ الوجوهِ الكثيرةِ العابرة ليبقى في الذاكرة ، أما أنا فألقيتُ نظرةً على الرسامِ المنهمكِ بملامحِ وجهٍ يرسُمه نقلاً عن صورةٍ فوتوغرافية ، حاولتُ التحدُّثَ إليه لكنَّه لم ينتبه إليَّ ، كنتُ أشعرُ برغبةٍ قويةٍ في التحدُّثِ إليه ، و لكنَّه لم يُعِرني أيَّ اهتمام ، حينها اندسَسْتُ بين العابرين باتجاهِ العصرونية شرقاً و منها إلى الجامعِ الأموي لَعلِّي أستحضرُ وجوهاً تنامُ في ذاكرتي ، أُحادِثها بهواجسِي و أفكاري و أنا أسيرُ متمهِّلاً على حجارةِ البازلتِ السوداءِ و الصَّمَّاء .

تجليات شهرزاد

التجلي الثاني

(- اسمعني جيداً ، أنا بانتظارِكَ هناك ، لن أعطِيَكَ أيَّ عنوانٍ أو تفاصيل ، كلُّ شيءٍ سيكون مُعدّاً و محضَّراً للقاء ، فلا تسألْ عن شيءٍ ، سنلتقي و ستراني هناك في بلادِ البردِ و الصَّقيع) .

استيقظتُ من نومي ، نظرتُ إلى الساعةِ كانتْ حوالي الثالثةِ فجراً ، لقد طار النومُ من عيوني ، أيُّ حلمٍ هذا ؟ حاولتُ أنْ أتذكَّرَه جيّداً ، أنْ أستحضِرَ صورةً ما ، و لكنْ لم أستطعْ ، فقط صوتٌ يهمسُ في أذنيْ بما وردَ قبلَ أسطُر ، صوتٌ أنثويٌّ رومانسيٌّ حالمٌ يدغدغ العقلَ قبلَ القلبِ ، يبعثُ في النفسِ و الجسدِ سكينةً و استرخاءً ، كأنه قادمٌ من عالمِ الملكوت ، يعجزُ لساني عن وصفِ حلاوةِ و جمالِ و أنوثةِ هذا الصوتِ الذي لعِبَ دورَ المخدِّر لأعصابي ، ما زلتُ أشعرُ كأنَّ صداهُ يتردَّدُ في أذني و أسمعُه حتَّى الآن .

قمتُ من فراشي ، جهَّزتُ فنجاناً من القهوة ، و جلستُ على الشرفةِ أتأمَّلُ النجومَ و الليلَ العميق و أنا أفكِّرُ بهذا الحلم ، ما معناه ؟ ما المقصودُ منه ؟ أم هو أضغاثُ أحلامٍ لا معنى لها ؟ ... ربما .

تساءلتُ : تَنتظِرُني هناكَ في بلادِ البردِ و الصَّقيع ، ماذا سيأخذُني إلى هناك ؟ ها قد تجاوزتُ الخمسين من عمري و لم أزرْ تلك البلاد ، و لا أظنُّ أنَّني سأزورُها ، فليس لي فيها صديقٌ أو قريبٌ ، و ليس هناك – بحدودِ - علمي أيُّ احتمالٍ لزيارةِ تلك البلاد ، كنتُ أحلمُ بها من خلالِ قراءاتي للأدبِ الروسيِّ ، دوستويفسكي .. غوغول .. تولستوي .. تورغينيف ... شولوخوف ... الخ . عندما ذكرتُ تلك الأسماءَ توجَّهتُ إلى مكتبتي و صرتُ أبحثُ عن أيِّ كتابٍ من الأدبِ الروسي ، وقعَ في يدي كتابٌ اشتريتُه حديثاً ، مجموعةُ قصصٍ بعنوان (بائع الكتب) لكاتبٍ روسيٍّ حديث اسمه فيتالي مالكوف ، انتهيتُ من قراءتِه قبلَ أيَّام ، يصفُ الكاتبُ في قصصِه ما حلَّ بالبلادِ و العبادِ هناكَ بعدَ انهيارِ الاتِّحادِ السوفييتي ، تركتُه و بحثتُ عن كتبٍ أخرى ، وقعتْ يدي على روايةِ (الموسيقي الأعمى) لفلاديميير كورولينكو ، و روايةِ (كيف سقينا الفولاذ) لنيقولاي اوستروفسكي بمجلديها الأنيقين ، و روايةِ (بطل من هذا الزمان) لليرمنتوف ، تناولتُ (الموسيقي الأعمى) و عدتُ إلى الشُّرفةِ ، مِن عادتي أنْ أدوِّنَ على الزاويةِ اليساريةِ العليا من الصفحةِ الأولى لكلِّ كتابٍ تاريخَ و مكانَ الشراء ، قرأتُ : دمشق 1985/1/7 كنتُ حينها طالباً في الجامعة ، كانتْ الكتبُ السوفييتيةُ آنذاك أنيقةَ الطباعةِ و رخيصةَ

الثمنِ لكلِّ مَنْ يحلمُ بتكوينِ مكتبةٍ في بيتِه ، و كنتُ أنا من أولئك الحالمين ، قلتُ في نفسي سأعيدُ قراءتَها بعدَ مُضِيِّ أكثرَ من خمسةٍ و ثلاثين عاماً على القراءةِ الأولى ، رشفتُ من القهوةِ التي بردتْ ، و رحتُ أتأمَّلُ الهزيعَ الأخيرَ من الليل الذي زادتْ برودتُه قبيلَ الفجر ، و أتلمَّسُ الكتابَ بأناملي و كأنَّني أقرؤه ، أتحسَّسه و كأنَّني أتحسَّسُ جسدَ تلك الجِنِّيَّةِ اللَّذيذةِ التي أيقظَتْني من نومي على وعدٍ مستحيلٍ في مكانٍ بعيدٍ ... عدتُ إلى فراشي لاستكمالِ نومي عَلَّها تزورُني مرةً أخرى .

*****

لم أكن أظنُّ أنَّ شيئاً غير عاديٍّ سيحصلُ معي و أنا أقطعُ المسافةَ من ساحةِ الأمويّين إلى جسرِ الرئيس سيراً على الأقدام ، فقد اعتدتُ على ذلك ، على يميني ما تبقَّى من سيلٍ ضعيفٍ من مياهِ نهر بردى في مجراهُ القاحلِ ، و سيلُ السياراتِ المتدفِّقُ على يساري ، و أنا أحاولُ أنْ استظلَّ بظلِّ الشُّجيراتِ المزروعةِ على الرصيفِ التي يأتي عمالُ المحافظةِ لاجتثاثِها كلَّما كَبُرتْ بلا سبب ، أو ربَّما للقيامِ بأيِّ عملٍ مهما كان . أسيرُ متأمِّلاً في اللَّاشيء ، أفكِّرُ في اللَّاشيء ، فاللَّاشيءُ صارَ صديقاً عزيزاً على قلبي جداً ، كلُّ شيءٍ و اللاشيءُ عادي ، حتى تلك اللحظةِ التي رنَّ فيها جوالي ، كنتُ أفكِّر بتجاهلِ الرَّنينِ و عدمِ الردِّ ، فمَنْ سيتصلُ بي الآنَ و أنا غارقٌ في لا أفكاري الجميلة ، استصعبتُ فتحَ الحقيبةِ ثمَّ البحثَ عن الموبايل ، المهم ... أدركتُ الاتصالَ في الثواني الأخيرة ، فتحتُ الخطَّ :

- ألو ؟
- ألووو .. سيد (..) لقد تمَّ اختيارُكَ ضمنَ وفدٍ سوريٍّ في رحلةٍ اطلاعيةٍ إلى موسكو ، السفرُ الأسبوعَ القادم ، لاحقاً نبلغُكَ بالموعدِ بدقَّة ، لكنْ عليكَ مراجعتُنا غداً مصطحِباً جوازَ السَّفر . بقيةُ الإجراءاتِ نحن سنتكفَّلُ بها .

يا إلهي .. ماذا يجري ؟ لم أصدِّق ، هل أنا في حلمٍ أم في يقظةٍ ؟ كدتُ أطيرُ دهشةً و مفاجأةً و فرحاً .. فجأةً تغيَّر كلُّ شيءٍ حولي و فِيَّ ، نظرتي إلى الشوارعِ ، الناسِ ، السَّيَّاراتِ ، السَّماءِ ، نثراتِ الغيومِ البيضاءِ الهاربةِ من قيظِ الشمسِ في أواخرِ أيلول . تابعتُ سيري بحالةٍ تشبهُ حالةَ انعدامِ الوزن ، صرتُ خفيفاً حرَّاً كأنَّني طيرٌ يحلِّقُ في السماء ، بعدَ أن أطلقتُ نظراتي في الفضاء ، عدتُ بها إلى الداخل .. إلى نفسي ، تذكَّرتُ ذاكَ الحلمَ و ذاك الموعدَ ، ذهبَتْ السكرةُ و جاءتْ الفكرةُ كما يقولون ، و تساءلتُ بقلقٍ :

- تُرى ماذا ينتظِرُني هناكَ في بلادِ البرد و الصَّقيع ؟

لن أفسِدَ عليَّ سعادتي الآنَ بأيِّ قلقٍ أو تساؤلاتٍ غامضةٍ و مبهمةٍ ، السَّفرُ بحدِّ ذاتِه متعةٌ كبيرةٌ ، فلا تنغِّصْ عليَّ متعتي ، قلتُ للوسواسِ الخنَّاسِ الذي يحاولُ أن ينكِّدَ عليَّ فرحتي بهذا الخبر ، و تابعتُ سيري .. بل تحليقي .

*****

هبطتْ بنا الطائرةُ في مطار فنوكوفو جنوبَ العاصمةِ الروسيةِ موسكو حوالي الساعةِ الثالثةِ صباحاً ، بعدَ حوالي خمسِ ساعاتٍ من الطيرانِ فوقَ العراق ، إيران ، أذربيجان , روسيا ، كان الجوُّ بارداً ، الثلجُ يغطي مروجَ الحدائق ، فنحن في أوائلِ شهرِ تشرين الأول ، أقلَّنا الباصُ إلى فندقِ أزيموت أولمبي حيث تمَّ الحجزُ لنا ، كنتُ أتأمَّل كلَّ شيءٍ ، و أحاولُ أن أتعرَّفَ إلى هذه المدينةِ من اللحظاتِ الأولى ، لفتَ نظري بعضُ العمَّالِ الذين يشتغلون في بعضِ المواقع و كأنَّ الوقتَ نهارٌ رغمَ البردِ و الثلج ، كما أثارَ اهتمامي أيضاً أنَّ الليلَ ليس حالكَ الظلامِ كما كنتُ أتوقَّعُ ، بل تبقى السماءُ مضاءةً بلونٍ فضيٍّ كجهجهةِ الفجرِ في بلادِنا ، فورَ و صولِنا إلى الفندق و إتمامِ الإجراءاتِ توجَّهتُ إلى غرفتي ، أخذتُ حمَّاماً ساخناً نفضَ عني التعبَ و النعاسَ ، جلستُ قربَ النافذةِ أتأمَّلُ المدينةَ – الحلم ، حاولتُ النومَ قليلاً و لكنَّني لم أستطعْ ، فاستلقيتُ على السريرِ أرنو إلى انبلاجِ الفجرِ في مدينةِ البردِ و الصقيع .

صباحَ اليومِ التالي بدأنا برنامجَ الرحلةِ و هي لمدةِ أسبوع ، سبعةُ أيامٍ من الجولاتِ السياحيةِ و الزياراتِ الاطِّلاعيةِ و اللقاءاتِ مع شخصياتٍ اعتباريةٍ في المدينة ، زُرنا وزارةَ الخارجية ، غرفةَ الصناعةِ في موسكو ، حديقةَ باتريوت و معرضَ الأسلحةِ في منطقةِ / كوبينكا / قربَ موسكو ، ديرَ القديس كيريل في قلبِ موسكو على ضفافِ نهرِها محاطاً بالحدائق ، كما قمنا برحلةٍ نهريةٍ في نهرِ موسكو لمدةِ ساعتين هي مِن أجملِ الرحلاتِ في حياتي ، زرنا الكرملين و تمشَّينا في الساحةِ الحمراء ، و التقطنا الصورَ فيها و أمامَ قصورِها ، و عرَّجنا على مسرحِ البوليشوي الشهير و مقابلَه تِمثالٌ من حجرِ البازلتِ الأسود للمفكِّر كارل ماركس ، في كلِّ هذه الأوقات التي كنتُ أحاولُ التمتُّعَ بها إلى أقصى حدٍّ ، و الامتلاءَ بجمالِ و نظافةِ هذه المدينةِ ، و الأبنيةِ و العماراتِ التي تُعتبر كلٌّ واحدةٍ منها لوحةً معماريةً – فنيةً فاتنةً ، و لكنْ رغمَ كلِّ ذلك كان هناكَ في عميقِ أفكاري هاجسٌ يترقَّبُ .. ينتظرُ إشارةً إلى ذلك الموعدِ – اللقاءِ معها ، مرَّتْ الأيامُ تِباعاً و لا شيءَ ينبئ ، و لا إشارةَ تظهرُ أو تلُوحُ في الأفقِ ، صرنا في اليومِ الخامسِ ، بقي يومان فقط و نشدُّ الرِّحالَ عائدين إلى بلدِنا ، و صرتُ أميلُ إلى أنَّ ما جرى في الحلمِ مجردُ هلوساتٍ و أضغاثِ أحلامٍ كما يقولون ، و يكفيني منه ما تحقَّقَ و هو زيارةُ موسكو .

مساءَ ذلك اليوم طرقَ بابَ غرفتي حوالي الساعةِ التاسعةِ مساءً رفيقٌ معنا في الوفد تعرَّفتُ إليه في هذه الرحلةِ و شاءتْ الظروفُ أن نكونَ دائماً معاً خلال الزياراتِ و الجولاتِ لِما بينَنا من تقاربٍ في العمرِ و الأفكارِ ، قال :

- لي صديقٌ مقيمٌ هنا في موسكو و قد دعاني إلى سهرةٍ و عَشاءٍ في أحدِ المطاعمِ التي تقدِّم طعاماً سورياً ، و لا أريدُ أن أذهبَ لوحدي فما رأيُكَ أن تذهبَ معي ؟

تردَّدتُ بدايةً في القَبولِ بحُجَّةِ أنَّ الوقتَ تأخَّرَ و أردفتُ :

- ربما يشكِّلُ الأمرُ إحراجاً لكَ و له ، فهو دعاكَ أنتَ و لم يدْعُني أنا .

فأجابني على الفور :

- لا إحراجَ في ذلك هو عَرَضَ عليَّ أن أصطحبَ معي مَنْ أشاءُ من رفاقِنا في الوفد ، و بصراحةٍ لم يخطرْ ببالي أحدٌ سواكَ لنكونَ معاً .

باختصار اتفقنا على الذهابِ معاً فهي سهرةٌ لن تكونَ بمتناولِنا كلَّ حين ، و ربما تكونُ الوحيدةَ في هذه البلادِ ، كان صديقُه ينتظرُنا في بهوِ الفندق ، تبادلنا السَّلامَ و التعارفَ و انطلقَ بنا بسيارتِه إلى المطعمِ و نحن نجهلُ الشوارعَ و الساحاتِ التي نعبرُها ، بعدَ حوالي ربعِ ساعةٍ تمهَّل باحثاً عن مكانٍ يركنُ فيه السَّيارةَ ، يبدو أننا وصلنا ، أخبرَنا و نحن ننزلُ من السيارةِ قائلاً :

- هذا مطعمٌ جميلٌ أجواؤه شرقيةٌ و يقدِّمُ طعاماً شرقياً و سورياً ممتازاً ، أنا دائماً أتردَّدُ إليه بينَ الحينِ و الآخر ، و أدعو الضيوفَ و الأصدقاءَ الذين يزورون موسكو إليه ، الآنَ سترون ذلك ، دخلنا المطعمَ فقام أحدُ النُدُل و رحَّب بمضيفِنا و بنا و أخذنا إلى المكانِ الذي تمَّ حجزُه لنا ، واضحٌ أنَّه يعرفُه جيداً ، الفرشُ و المناضدُ كلُّها منسوجةٌ على الطريقةِ الشرقية ، أرائكُ و كراسٍ مريحةٌ ، الجدرانُ مغطاةٌ بلوحاتٍ فنيةٍ مستوحاةٍ من أجواءِ الباديةِ حيث أشجارُ النخيلِ و الصبايا البدوياتُ بلباسِهنَّ التقليديِّ المعروف ، المُهم جلسْنا و بدأنا نتجاذبُ أطرافَ الحديث و نتذوَّق الأطعمةَ اللذيذةَ مع الفودكا الروسية ، بعدَ حوالي نصفِ ساعةٍ بدأتْ الموسيقا العربيةُ ثم أغنياتٌ لعبد الحليم حافظ ، و على أنغامِها خرجتْ حورياتٌ روسياتٌ فاتناتٌ يرتدين لباسَ الرقصِ الشرقيِّ الذي يكشفُ الكثيرَ من أجسادِهنَّ و هنَّ يتمايلن على الأنغامِ ، أربعُ حورياتٍ أبدعَ الله في خلقِهنَّ ، يتنقلنَ بينَ طرفَي الصالةِ متمايلاتٍ برقةٍ و عذوبةٍ في فُسحَتين مخصَّصتين للرقصِ إحداهما بقربي ، أثناءَ ذلك ارتطمت يدُ إحدى الراقصاتِ بكتفي و هي تطوِّحُ بها و كأنها تريدُ التحليقَ في فضاءِ المطعمِ و منه إلى السماء ، التفتُّ ، تلاقتْ

نظراتُنا ، توقفتْ عن الرقصِ و التمايلِ ، تسمَّرتُ ناظراً إليها ، بدأتْ بالاعتذارِ ، فوقفتُ و أبديتُ أنا أيضاً اعتذاري و قَبولَ اعتذارِها بالملامحِ باعتباري لا أعرفُ أيَّ كلمةٍ روسيةٍ باستثناء (سباسيبا = شكراً) و لم أفهمْ منها أيَّ كلمةٍ قالتها ، مدَّتْ يدَها مصافِحةً و مددتُ يدي ، نظري مازال معلقاً بنظرِها بشيءٍ لا يُفسَّر ، ثوانٍ مرَّتْ و كأنَّ الزمنَ توقَّفَ ، كأنها ساعاتٌ ، عدتُ إلى جلستي مع رفيقَي السهرةِ جسداً و لكنَّ روحي و فكري مع تلك الراقصةِ خلفي التي لا أراها ، صرتُ أتململُ في جلستي أريدُ تبديلَ مكاني لأتمكَّنَ من رؤيةِ هذه الحوريةِ الفاتنة ، لم أعدْ أركِّزُ في حديثِي معهما ، أصبحَتْ مشاركتي في الحديثِ متقطعةً غيرَ منسجمةٍ مع ما يقولان و كأنَّني في مكانٍ آخر لا أشاركُهُما الطاولةَ نفسَها ، اقتربَ من أذني مضيفُنا و قال هامساً :

- يبدو أنَّك محظوظٌ الليلة ، الراقصةُ التي اصطدمت يدُها بكَ لا تفارقكَ بنظراتِها ، ما رأيُكَ أن تغيِّرَ جلستَكَ ، اجلسْ هنا حيث يصبحُ بإمكانِكَ أن تراها ؟

بعدَ تردُّدٍ شكليّ قصيرٍ غيَّرتُ مكاني و جلستُ على كرسيٍّ يمكنني منه أن أراها و هي تتمايلُ بغُنجٍ و دلالٍ ، نظراتُنا تتلاقى بعمقٍ ، لغةٌ مشتركةٌ توالدَتْ بيننا في هذه اللحظاتِ هي أعمقُ و أبلغُ من أيِّ لغةٍ أخرى ، شعرتُ أنها ترقصُ لي وحدي و ليس لكلِّ روَّادِ المطعم ، عدتُ متحدِّثاً طلقاً و مشاركاً بارعاً في الحديثِ مع الأصدقاء ، و الابتسامةُ لا تفارقُ وجهي ، صرتُ أكثرَ انسجاماً معَهم و معها ، صارَ الطعامُ أطيبَ و الفودكا التي لم أذقْها و لم استسِغْها قبلَ الآن مشروباً إلهياً رائعاً ، صرتُ كائناً آخرَ ، نظر صديقي إلى الساعةِ تجاوزَتْ منتصفَ الليل ، قلَّ روَّادُ المطعمِ ، الموسيقا في نهايتِها ، الراقصاتُ مازلن يتمايلن طرباً و تَعَباً ، و حوريتي ما تزالُ مشرقةً ، تمنَّيتُ على هذا الليلِ ألا ينتهيَ لأبقى قادراً على رؤيتِها ، و لكنْ .. لكلِّ شيءٍ نهايةٌ ، قال مضيفنا :

- أتمنَّى أن تكونا قد استمتعتما بهذه السَّهرة .

فأجبنا معاً :

- إنَّها سهرةٌ رائعةٌ.. شكراً لكَ على هذه الدعوةِ الكريمةِ و اللطيفة ، و إنْ شاءَ اللهُ نسهرُ مثلَها معاً في دمشقَ عندما تزورُها .

توقَّفتْ الموسيقا ، بدأتْ الراقصاتُ بالانسحابِ من الصالةِ ، نحن نتهيَّأ للخروجِ ،

لمَحْتُ خلفَ الستارةِ التي خرجتْ منها الراقصاتُ في بدايةِ السهرة حوريَّتي واقفةً تنظرُ إليَّ ، تأمَّلتُها و حزنٌ عميقٌ دبَّ في قلبي ، قربَ بابِ الخروج تقدَّمتْ منِّي على مهلٍ في غفلةٍ من الكونِ ، صافحتني ، و دسَّتْ في يدي ورقةً صغيرةً ، خرجنا

إلى برودةِ الليل الروسيِّ الجميلِ و حرارةُ الفودكا تفعلُ فعلَها في أجسادِنا ، أمَّا أنا فأضيفتْ إليها حرارةُ و شرارةُ العشقِ ، ألقيتُ نظرةً أخيرةً إلى المطعمِ لأعرفَ اسمَه ، و سألتُ مضيفَنا عن ذلكَ فأجابَ :

- اسمُه مطعمُ شهرزاد ، ألم تشعرْ فيهِ و كأنَّكَ في أجواءِ ألفِ ليلةٍ و ليلة ؟

و صلنا إلى السَّيارة ، انطلقَ بنا مضيفُنا و هو يعرِّفنا إلى الشوارعِ قائلاً :

- هذا شارعُ ياروسلافسكايا و فيه يقعُ المطعم ، و ها نحن نتحوَّلُ منه إلى شارعِ كوسمونافتاف أوليتسا (رواد الفضاء) ، أما الآنَ فقد وصلنا إلى بارسبيكت ميرا (أوستراد السلام) عشرُ دقائقَ و نصلُ إلى فندقِ ازيموت .

أمامَ بابِ الفندق ودَعنا مضيفُنا متمنِّياً لنا ليلةً سعيدةً ، تبادلنا السلامَ على أملِ اللقاءِ ، توجَّهنا كلٌّ إلى غرفتِه للاستغراقِ في النومِ ، دخلتُ غرفتي و أنا في كاملِ الصحوِ و الشوقِ و الحبِّ و الحزن ، أخرجتُ الورقةَ التي دسَّتها الحوريةُ في يدي ، حاولتُ قراءةَ المكتوبِ فيها ، فلم أفهمْ شيئاً ، أما الأرقامُ فعرفتها ، حضنتُ الورقةَ ، وضعتُ موسيقا شهرزاد لريمسكي كورساكوف ، تمدَّدتُ على سريري ، و رحلتُ في عوالمِ الخيالِ و الحلمِ ، و بينَ الحينِ و الآخرِ أتحسَّسُ الورقةَ – الحقيقةَ ، و أفكِّرُ فيمَن سيترجِمُها لي غداً .

سيرة ذاتية

عماد الدين إبراهيم مواليد عام 1966 - إجازة في الصحافة من جامعة دمشق 1988 - مذيع و معد برامج في الإذاعة و التلفزيون من عام 1994 من أهم البرامج التي أعددتها و قدمتها : (قصة رواية – دراما إذاعية) ، في مكتباتهم ، عالم الرحلات ، حديث الترجمان ، ألم و إبداع ، رسائل لا تنسى ، مقامات الوجد ، صحافة و ثقافة ، مدن و مقاهي (برنامج تلفزيوني) ، إضافة لكتابة المقالات الثقافية النقدية .

- شغلت عدة مواقع إدارية في الهيئة منها : رئيس دائرة التمثيليات (بإذاعة دمشق) – رئيس دائرة التنسيق لمرتين (بإذاعة دمشق) – رئيس دائرة البرامج الثقافية في التلفزيون - مدير إذاعة دمشق - مدير إدارة الإذاعة .
- كاتب نصوص درامية و غنائية محفوظة في المكتبة الإذاعية .
- (المتوحد راعي الرياح) مجموعة شعرية صدرت عن دار التكوين بدمشق عام 2004 و قام بترجمتها إلى اللغة الفارسية الشاعر محمد حمادي و صدرت عن دار (شُكوهِ حكمتِ رحماني) في مدينة مشهد الإيرانية عام 2019.
- (تداعيات الذاكرة المطرية) مجموعة قصصية صدرت عن دار التكوين بدمشق عام 2018

الفهرس

1 – الإهداء – ص 2

2 - تجليات شهرزاد – التجلي الأول – ص 3

3– العرض الآخر – ص5

4 – آتشكاه جبل النار – ص 10

5 – شجرة القتيل - ص 16

6 – سفر على مقام الشرق – ص 21

7 – وقائع قبل النوم – ص 25

8 – في حضرة ابن لنكك – ص 29

9– دمعة في موسكو - 35

10 - الممتعض – ص 38

11 – الكرسي – ص 42

12 – وجوه عابرة – ص 46

13 - تجليات شهرزاد – التجلي الثاني ص 50

14 – سيرة ذاتية - ص 56

15 - الفهرس – ص 57

ملاحظة : كتبت قصص هذه المجموعة في عام 2019 ، عدا قصة دمعة في موسكو في كانون الثاني 2020